@ketab_n
Follow Me
3.6.2014

بيريرا يدّعي

ترجمة: معاوية عبدالمجيد

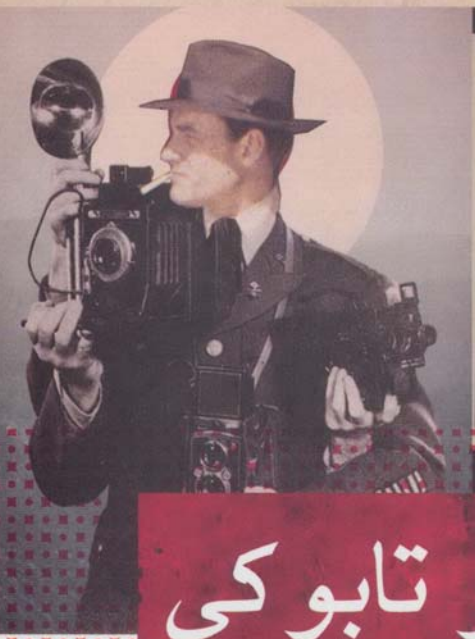

@ketab_n
Follow Me

أنطونيو تابوكي

أثر

أنطونيو تابوكي

بيريرا يدّعي

@ketab_n
Follow Me

رواية

ترجمة: معاوية عبد المجيد

Titter: @ketab_n

Titter: @ketab_n

بيريرا يدّعي

Titter: @ketab_n

Titter: @ketab_n

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي Sotiene Pereira
حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونيا من: **The Wylie Agency (UK) Ltd**
بمقتضى الإتفاق الخطي الموقع بينه وبين دار أثر للنشر والتوزيع.

Sotiene Pereira
Copyright © 1994, Antonio Tabucchi
All rights reserved

الطبعة الأولى
1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-284409-763-7

جميع الحقوق محفوظة

أثر

دار أثر للنشر والتوزيع
المملكة العربية السعودية - الدمام
تلفون: 00966505774560
الموقع الإلكتروني: www.darathar.net
Email: info@darathar.net

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

Titter: @ketab_n

1

يدّعي بيريرا أنه تعرّف عليه في يومٍ صيفيٍ يمتاز بهوائه العليل، وتتألق لشبونة بنقاء جوّه وإشراقه. كان بيريرا في حيرة من أمره، فرئيس التحرير، الذي كان ينعم في إجازة، ترك إخراج الصفحة الثقافية على عاتقه، بعد أن خصّصت جريدة لشبونيا[1] صفحةً للشؤون الثقافية وأوكلته أمورها. وبينما كان يشاهد المدينة من نافذة المكتب، تلمع بكل معنى الكلمة، في ذلك اليوم الصيفي الرائع، ونسائم الأطلسيّ تداعب قمم الشجر، تحت سماءٍ زرقاء ليس لصفائها مثيل، يدّعي بيريرا أنه كان يفكّر بالموت. لماذا؟ من المستحيل أن يجيب بيريرا على سؤال كهذا. ربّما لأنّه يذكر في طفولته أنّ والده كان صاحب مؤسسة لتنظيم الجنازات اسمها "بيريرا لادولوروزا". أو ربّما لأنّ زوجته توفيّت بداء السلّ منذ بضعة أعوام. بل ربّما لأنه كان بديناً ويعاني من مرض القلب والضغط، وأنّ الطبيب صارحه بنهاية قريبة إن استمرّت صحته على هذا النحو. ما يهمّنا أنه كان يفكر بالموت يومئذ، كما يدّعي. وكان، بمحض الصدفة، يقلّب مجلة أدبية تحتوي على فصول فلسفية. لم يكن بيريرا متأكداً من التوجهات الفكرية للمجلة. ربما كانت طليعية،

---

1 في النص الإيطالي الأصلي، اختار الكاتب للجريدة اسم العاصمة لشبونة كما يكتب في اللغة البرتغالية "Lisboa" لتفريقه عن اسم العاصمة في اللغة الإيطالية "Lisbona". فقمت بتحريفه إلى "لشبونيا" كي لا تختلط الأمور على القارئ العربي. المترجم.

Titter: @ketab_n

لكنها تتعامل مع كثير من الكتّاب الكاثوليكيين بلا شكّ. وفي تلك اللحظة على الأقل، كان بيريرا يشعر بانتمائه الكاثوليكي. لكنه لم يتوصل إلى الإيمان المطلق بقيامة الجسد، رغم أنه يؤمن بقيامة الروح، لأنه متأكد من امتلاكها. لكنه لم يكن واثقاً من أنّ جسده المترهل، الذي يحيط بروحه، سوف يُبعث من جديد. ولماذا يقوم الجسد أصلاً؟ يتساءل بيريرا. ولماذا على هذه المصاعب اليومية، من شحوم وعرق متصبب وإرهاق بعد صعود الدرج، لماذا عليها أن تُبعث من جديد؟ لم يكن يرغب بقيامة الجسد مطلقاً، ولن يكون بحاجة لهذا المسلسل المضني في الحياة الخالدة. كان يقلّب تلك المجلة بعدم اكتراث ليقضي على شعوره بالملل كما يدّعي. وإذ به يجد مقالاً جاء في مقدمته: "تأملات في الموت. من أطروحة تخرج نوقشت الشهر الماضي في جامعة لشبونة. الكاتب فرانسيسكو مونتيرو روسي، خرّيج كلية الفلسفة بمعدل تام. وهذا جزء من رسالته الطويلة، ويسرّنا أن يتعامل معنا مجدداً في المستقبل".

يدّعي بيريرا أنه قرأ المقال بدون تركيز، إذ لم يكن له عنوان محدد. ثم عاد تلقائياً للخلف وراح ينقل جزءاً منه. لماذا فعل ذلك؟ ليس بمقدوره الإجابة على هذا السؤال. ربما لأنّ المجلة أزعجته بكونها طليعية وكاثوليكية في آن واحد. وربما لأنّ الفكر الطليعي والدين الكاثوليكي سبّبا له الضجر يومها، مع أنه كان كاثوليكياً مؤمناً في أعماقه. ربما لأنه اشمئزّ من فكرة قيامة الجسد، في تلك اللحظة تحديداً من ذلك الصيف الذي يلهب لشبونة. بل ربما كي يلقي المجلة في سلة المهملات بكل بساطة.

يدّعي بيريرا أنه لم ينسخ المقال بأكمله، لكنه نقل بضعة أسطر منه ليوثّقها: "تحدّد العلاقة بين الحياة والموت مغزى وجودنا البشري

Titter: @ketab_n

بالشكل الأكثر عمقاً وعموميةً. وبما أنّ نهاية وجودنا ناجمة عن الموت، فهو ضروري إذن لاستيعاب الحياة وتقييمها". ثم راح يقلّب دليل الهواتف ويقول لنفسه: روسّي، روسّي.. أي كنية غريبة هذه! لا أعتقد أنّ في لشبونة كلها أكثر من عائلة واحدة بهذه الشهرة. يدّعي بيريرا أنّه اتصل برقم لن ينساه أبداً. ردّ عليه صوت أحد ما: آلو، من معي؟.. فأجاب بيريرا: آلو، هنا جريدة لشبونيا.. قال الصوت: ما المطلوب يا سيدي؟.. بيريرا يدّعي أنه قال: حسناً، إنّ لشبونيا جريدة ناشئة، تصدر من العاصمة لشبونة. لا أعلم إن سمعت بنا من قبل. جريدتنا مستقلة لا تُعنى بالسياسة، لكننا نؤمن بالروح، أعني أنّ لدينا ميولٌ كاثوليكية. أودّ التحدّث إلى السيد مونتيرو روسي.. يدّعي بيريرا أنّ الصمت هبط للحظة على الطرف الآخر، حتى قال الصوت إنه مونتيرو روسي بعينه، وإنه لا يعير اهتماماً للروح. ويدّعي بيريرا أنّ الصمت هبط على جهته أيضاً، لأنه استغرب الأمر. فكيف لشخصٍ كتب تأملات عميقة حول الموت لا يعير اهتماماً للروح.. ظنّ أنّ التباساً ما قد حدث، وسرعان ما راودته فكرة قيامة الجسد، بل إنّها الفكرة التي لا تفارقه مؤخراً. وقال له إنه قرأ مقالته عن الموت، وإنّه لا يؤمن بقيامة الجسد إن كان هذا ما يقصده مونتيرو روسي. يدّعي بيريرا أنه شعر بالإحراج، وهذا ما جعله يغضب من نفسه أولاً. فكيف يتورط بالاتصال بشخص لا يعرفه ليناقشه بمواضيع حساسة كالروح وقيامة الجسد، بل إنها مواضيع حميمية بالأحرى.. بيريرا يدّعي أنه ندم، حتى كاد يغلق السماعة. لكنه، ومن يدري كيف حصل على الجرأة ليكمل المحادثة، عرّف عن نفسه بأنه الأستاذ بيريرا. وقال إنه مدير الصفحة الثقافية في جريدة لشبونيا، وهي صحيفة تصدر في المساء حالياً، فلم تكن لتنافس كبريات صحف العاصمة. لكنه كان متأكداً من نجاحها

Titter: @ketab_n

عاجلاً أم آجلاً، فهي تخصص صفحة للثقافة يوم السبت رغم أنها تغطّي أخبار الحفلات والأزياء والمنوعات العامة. وقال إنّ أسرة التحرير لم تكتمل بعد، فهو بحاجة لموظفين ومستكتبين مستقلين يملؤون زوايا الصفحة باستمرار.

يدّعي بيريرا أنّ مونتيرو روسي أجابه حالاً بأنه مستعد للمجيء إلى مكتب القسم الثقافي في اليوم نفسه، فهو مهتم للعمل مهما كانت طبيعته لأنه بحاجة ماسة لأن يعتمد على نفسه بعد أن تخرّج من الجامعة. لكن بيريرا سارع لأخذ الحيطة قائلاً إنّ من الأفضل أن لا يأتيه إلى الجريدة حينها، ومن الأفضل أيضاً أن يحدّدا موعداً يلتقيان بموجبه في مكان ما من المدينة. فبيريرا يّدعي أنه لم يرغب بدعوة شخص لا يعرفه إلى مكتبه البائس في شارع رودريغو دا فونسيكا، حيث كان الضجيج يصدر من مروحة مصابة بالربو وبالكاد ترسل الهواء، وكانت رائحة القلي تنبعث دوماً من حجرة البوابة، تلك المرأة الشمطاء التي ترمق الجميع بارتياب وتقضي جلّ وقتها بتحضير المقالي. ثم إنّ قسم الصفحة الثقافية ليس فيه إلا بيريرا، مدير الصفحة نفسها. وهذا ما لم يشأ أن يُطلع عليه شخصاً مجهولاً. فضلاً عن أنّه كان يتعرّق دوماً ويشعر بالاكتئاب في ذلك المكتب الضيّق. طلب منه أن يلتقيا في المدينة إذن، فأجابه مونتيرو روسي: إنني مدعوٌّ هذا المساء إلى براسا دا اليغريا، حيث تقام حفلة رقص شعبي على أنغام الغيتار. وقد دُعيت لأؤدي أغنية نابوليتانية، فأنا لي جذور إيطالية، لكنني لا أتحدث اللهجة النابوليتانية. على كل حال، حجز صاحب النادي طاولة باسمي في الهواء الطلق. هلّا تفضلت إلى هناك لنتعارف؟.. فوافق بيريرا كما يدّعي، ثم أغلق السماعة ومسح عرقه. وخطرت في باله فكرة رائعة، أن يخصص زاوية باسم "أحداث تاريخية" وفكر أن ينشرها السبت المقبل.

Titter: @ketab_n

وكتب عنوانها تلقائياً: "عامان على رحيل الأديب الكبير لويجي بيراندييللو". ربما ساقه التفكير بإيطاليا إلى هذا الكاتب. ثم وضع عنواناً فرعياً: "لشبونة شهدت العرض الأول لمسرحيّته (أحلم وربما لا أحلم)".

كانت لشبونة تتلألأ تحت سماء شديدة الزرقة، وتنفحها النسمات الأطلسية، في اليوم الخامس والعشرين من يوليو عام 1938، كما يدّعي بيريرا.

Titter: @ketab_n

2

يدّعي بيريرا أنّ الطقس تغيّر في الظهيرة. توقفت نسائم الأطلسي فجأة، وهبّ ضباب كثيف من المحيط لفّ المدينة في كفن القيظ. وقبل أن يخرج من المكتب، نظر إلى ميزان الحرارة الذي اشتراه على حسابه الخاص ونصبه خلف الباب. وصل المؤشر إلى الثامنة والثلاثين درجة. أطفئ بيريرا المروحة، ووجد البوابة عند الدرج تقول له: إلى اللقاء يا أستاذ بيريرا. نفذت رائحة القلي التي تحوم في الفناء مرة أخرى إلى أنفه وخرج أخيراً إلى الهواء الطلق. أمام باب المبنى، يقع سوق الحي الذي يعيش حالة اضطراب عامة، وبيريرا يعرف السبب. ففي اليوم السابق، في آلينتيخو، قتل رجال الشرطة سائق عربة يزوّد المحلات بالبضائع، وكانت ميوله اشتراكيّة. ولهذا السبب كانت قوات الحرس الوطني الجمهوري تقيم على مداخل الأسواق، وهاهم يتمركزون في الحيّ بشاحنتين صغيرتين. ولكن صحيفة لشبونيا لا تمتلك من الشجاعة ما يسمح لها بنشر الخبر. فمدير التحرير ليس بيده أية صلاحية، ورئيس التحرير في إجازة على أطراف بوساكو المنعشة، يستجمّ بالمياه الكبريتية. ومن كان ليملك الشجاعة في نشر خبر من هذا النوع، أنّ سائقاً اشتراكياً قتلته الشرطة في آلينتيخو فوق عربته وتلطّخت كل الخضروات بدمائه؟ لا أحد، فالبلد كان ساكتاً وعاجزاً عن فعل شيء أكثر من السكوت. وفي المقابل تتصرف الشرطة كأنها الآمر الناهي، والناس تُقتل في الشوارع. بدأ بيريرا يتصبب عرقاً لأنه فكر بالموت

Titter: @ketab_n

ثانية، محدّثاً نفسه: هذه المدينة تفوح منها رائحة الموت الكريهة، كل أوروبا تفوح منها رائحة الموت.

توجّه إلى اوركيديا كافيه، على بعد خطوتين من الملحمة اليهودية. وجلس على طاولة داخل المقهى حيث توجد مراوح على الأقل، فالطقس كان حاراً وليس بوسعه الجلوس في الخارج. طلب عصير الليموناضة، وذهب إلى الحمّام ليغسل وجهه ويديه. ثم طلب سيجاراً وجريدة المساء. فجلب له النادل مانويل صحيفة لشبونيا بالضبط. لم يكن قد ألقى نظرة إلى المسودة ذلك النهار، لذا تصفّح الجريدة كما لو كان لا يعرفها. الصفحة الأولى تقول: "اليوم ينطلق اليخت الأكثر أبهة في العالم من نيويورك". نظر إلى العنوان طويلاً، ثم إلى الصورة. كان فيها مجموعة من الأشخاص يلبسون قمصاناً ويضعون قبّعات القش فوق رؤوسهم ويفتحون زجاجة شمبانيا. يدّعي بيريرا أنه أخذ يتعرق مجدداً، وفكر ثانية في قيامة الجسد. قال لنفسه: هل يعقل أن أجد نفسي بصحبة هؤلاء إذا ما قمت من الموت؟.. وتخيّل أنه موجود معهم على اليخت في مرفأ ما من الأبدية. وبدت له الأبدية مكاناً لا يطاق يجثم فوقها ذات الستار الضبابي الحار الذي هيمن على لشبونة منذ قليل، مع أناس يتكلمون بالانكليزية ويصيحون رافعين النخب. طلب بيريرا ليموناضة أخرى. وراح يرجّح بين الذهاب إلى البيت والاستحمام بماء بارد، أو الذهاب للقاء صديقه الخوري، الأب أنطونيو، في كنيسة داس ميرسيس. اعترف على يديه قبل عدة سنوات، بعدما توفيت زوجته، وكان يذهب للقائه مرة في الشهر. وفي النهاية رأى أنه من المستحسن الذهاب إلى الأب أنطونيو، علّه يحصل على بعض الطمأنينة.

وهكذا فعل. يدّعي بيريرا أنه في تلك المرة نسي أن يدفع الحساب. نهض دون أن يكترث بالأمر أو يفكر فيه حتى، وخرج

Titter: @ketab_n

ببساطة، تاركاً جريدته وقبّعته على الطاولة. ربما لم يكن يرغب بوضع القبّعة على رأسه في ذلك الجوّ الحارّ، أو لأنه كان رجلاً ينسى الأغراض.

يدّعي بيريرا أنّ الأب أنطونيو كان منهكاً، ويبدو إنساناً محطماً، وجوف عينيه يصل حتى وجنتيه كأنه لا ينام أبداً. سأله بيريرا ما الذي جرى له، فقال الأب أنطونيو: أنت تسألني؟ ألا تعرف؟ لقد قتلوا رجلاً من آلينتيخو فوق عربته. الإضرابات تعمّ العاصمة ومدناً أخرى. قل لي بربّك في أي عالم تعيش وأنت تعمل في جريدة! اذهب واستعلم عن الخطب يا بيريرا، هيّا.

بيريرا يدّعي أنه مضى منزعجاً من هذا اللقاء السريع ومن الطريقة التي أخرجه بها الأب أنطونيو. تساءل: في أي عالم أعيش؟ وراودته فكرة غريبة بأنه قد لا يكون على قيد الحياة بل ميتاً منذ حين. إنه يعيش كأنه ميت منذ أن رحلت زوجته، أو بالأحرى، لم يفعل شيئاً منذئذٍ سوى التفكير بالموت، وبقيامة الجسد التي لا يؤمن بها ولا بالترهات المماثلة. كانت حياته ليست إلا محاولة للمقاومة وتصنّعاً للحياة. يدّعي بيريرا بأنه شعر بوهن عام. واستطاع أن يجرجر نفسه إلى أقرب موقف ترام، واستقل واحداً يأخذه إلى تيريرو دو باسو. وأثناء الطريق راح يشاهد، من النافذة، مدينته الجميلة كيف تتبدد ببطء. رأى المباني الرائعة في شارع افينيدا دا ليبيرداد، ثم براسا دو روسيو على الطراز البريطاني. نزل في تيريرو دو باسو ليأخذ تراماً آخر يهبط به إلى القلعة. ونزل على مستوى الكاتدرائية، لأنه كان يسكن قريباً من هناك، في شارع دا ساوداد. وصعد، بشقّ الأنفس، منحدر الشارع الذي يؤدي إلى بيته. ضرب جرس البناية لأنه، من شدّة اللهاث، لم يعد بوسعه البحث عن المفاتيح. وجاءت البوابة، التي تعمل كخادمة تدبّر شؤون

Titter: @ketab_n

منـــزله أيضاً، لتفتح له. أستاذ بيريرا، قالت، أعددت لك شرائح اللحـــم المقلي للعشاء. فشكرها وصعد على الدرج ببطء، أخرج المفتاح من تحت ممسحة العتبة حيث كان يضعه دوماً، ودخل. توقّف أمـــام المكتبـــة في مدخل البيت، حيث كانت صورة زوجته. كان هو من التقط لها تلـــك الصورة، في عام 1927 أثناء رحلة لمدريد. وفي الخلفية يظهـــر متحـــف الإسكوريال الضخم. اعذريني على تأخّري، قال لها بيريرا.

يدّعي بيريرا أنه اعتاد على التحدث إلى صورة زوجته منذ وقـــت لا بأس به. فكان يحكي لها ماذا فعل خلال النـــهار، ويأتمنـــها علـــى أفكاره، ويطلب منها النصح أحياناً. لا أعلم بأي عالم أعـــيش، قـــال بيريرا للصورة، حتى الأب أنطونيو أخبرني بذلك، والمشكلة أنني لا أفكر بشيء آخر سوى الموت، ويبدو لي أنّ العالم كله قد مات أو أنه علـــى وشك الموت.. ثم فكر بيريرا بابنه الذي لطالما تمنّى الحصول عليه، لكنه لم يجرأ على طلبه من زوجته الضعيفة والمريضة، والتي كانت تقضي ليالٍ بالأرق وأوقات طويلة في مصحة السل. فشعر بالأسى. لو أنجبتْ لـــه ولداً كان سيكبر ليشاركه الطعام والحديث، و لم يكن بحاجة ليخاطب صورة تعود لرحلة بعيدة بالكاد يذكرها. لا بأس، صبراً.. كانت هذه العبارة التي يختم بها حديثه مع الصورة. ثم ذهب إلى المطبخ، جلس إلى المائدة ورفع غطاء المقلاة التي تحتوي على شرائح اللحم المقلية. كانـــت الشرائح باردة، لكنه لم يرغب في تسخينها. وكان يأكلها باردة دائمـــاً كما تتركها البوابة. تناول وجبته ثم ذهب إلى الحمّام ليغســـل إبطيـــه ويغيّر القميص. لبس ربطة عنق سوداء ووضع قليلاً من العطر الإسباني الذي بقي في قارورة اشتراها من مدريد عام 1927 ثم ارتـــدى ســـترة رمادية وخرج ليذهب إلى براسا دا اليغريا. فالساعة كانـــت التاســـعة مساء، كما يدّعي بيريرا.

Titter: @ketab_n

3

يدّعي بيريرا أنّ المدينة كانت في قبضة الشرطة ذلك المساء. وجد رجال الأمن في جميع النواحي. ركب سيارة أجرة حتى تيريرو دو باسو، وعلى الرصيف المظلل تمركزت الشاحنات ورجال الأمن المدججون بالسلاح. ربما تخوّفوا من المظاهرات أو التجمّعات في الساحة، لذا قرروا أن يسيطروا على الأماكن الحساسة في العاصمة. كان يرغب أن يمشي على قدميه لأنّ طبيبه أوصاه بالحركة، لكنه لم يمتلك الشجاعة اللازمة ليمر ما بين هذه القوى العسكرية المشئومة. فأخذ الترام الذي يجتاز شارع دوس فانكويروس ويفضي إلى براسا دا فيغويرا. يدّعي أنه نزل هناك، ليجد مزيداً من رجال الشرطة. وكان عليه هذه المرة أن يمر من أمام الجنود، مما كدّر مزاجه بالحال. وحينها سمع الضابط يقول للمجندين: تذكّروا أيها الرفاق أنّ المتمردين يتقنون الكمائن، فلتبق أعينكم متيقّظة دوماً.

شرع بيريرا ينظر حوله كأنّ نصيحة الضابط موجهة إليه، لكنه لم يرَ أي داع للحذر. فشارع افينيدا دا ليبرداد كان هادئاً، وكشك المثلجات مفتوحاً يستقبل بعض الناس على طاولاته لينعموا بالانتعاش. راح يمشي باطمئنان على الرصيف المركزي، إلى أن سمع أنغاماً موسيقية في تلك اللحظة كما يدّعي. وكانت الموسيقى حزينة وعذبة، من تراث مدينة كويمبرا. ورأى تناقضاً في ذلك المشهد الغريب الذي يجمع الموسيقى برجال الشرطة. وتكهّن أنّ الموسيقى آتية من براسا دا اليغريا،

Titter: @ketab_n

وكانت تكهناته في محلّها. فصوت الغيتارات أخذ يعلو تدريجياً كلّما اقترب من ذلك المكان.

يدّعي بيريرا أنّ تلك الساحة لم تكن تبدو لمدينة تعيش في ظلّ الحصار، إذ لم يكن فيها أي رجل شرطة. اللهم إلا الحارسة الليلية التي بدت ثملةً وهي تتثاءب على أحد المقاعد. وكانت الساحة مزينة بشرائط مزخرفة، وأضواء ملونة بالأصفر والأخضر ومعلّقة على أسلاك متينة توصل بين نافذة وأخرى. وكان هناك بعض الطاولات في الهواء الطلق وبعض الساهرين يرقصون اثنين اثنين. ثم رأى لافتة كبيرة مرفوعة بين الأشجار، وكُتب عليها بخط عريض: "لك المجد يا فرانشسكو فرانكو". وقرأ عبارة صغيرة تحتها: "تحيةً للمقاتلين البرتغاليين في إسبانيا".

يدّعي بيريرا أنه في تلك اللحظة أدرك أنّ الحفلة لمؤيدي الحاكم سالازار، ولذا لم يكن من داع لوجود الشرطة. وفي تلك اللحظة أيضاً، انتبه إلى أن كثيراً من السادة كانوا يرتدون القمصان الخضراء ويلفّون أعناقهم بالشال. ظل متسمّراً في مكانه من شدة القلق، وفكر بعدة أشياء مختلفة في أقل من ثانية واحدة. فكّر أنّ مونتيرو روسي ليس إلا واحداً من هؤلاء، فكر في السائق الذي تلطخت خضرواته بدمائه في آلينتيخو، فكر بما سيعبّر به الأب أنطونيو لو رآه في مكان كهذا. جلس على المقعد الذي كانت الحارسة الليلية تنام عليه، وسرح في تلك الأفكار. واستسلم بالأحرى لتلك الموسيقى التي كانت تروق له بغض النظر عن الحفل وما فيه. كان العازفان في سنّ متقدمة، واحد يعزف الفيولا والآخر على الغيتار، وكانا يعزفان أنغام كويمبرا الأخّاذة. تذكّر أيام شبابه عندما كان طالباً جامعياً في تلك المدينة، حين كان يتطلع لمستقبل زاهر. لطالما سحرته هذه الموسيقى في معظم الحفلات الطلابية،

Titter: @ketab_n

وكان هو أيضاً يعزف على الفيولا حينها خلال تلك الحفلات، وكان نحيفاً ورشيقاً ووسيماً، أوقع في غرامه كثيراً من الفتيات الجميلات. لكنه أحبّ فتاة ضعيفة وشاحبة، تكتب الشعر وغالباً ما تعاني من صداع في الرأس. ثم فكر بأشياء أخرى من حياته، ولكنه لا يود الإفصاح عنها لأنه يدّعي أنها له وحده ولن تضيف شيئاً على تلك السهرة التي شارك فيها رغماً عنه. ثم يدّعي بيريرا أنه رأى شاباً، في لحظة معينة، ينهض من إحدى الطاولات. كان طويل القامة رشيقاً ويرتدي قميصاً فاتح اللون، ويتوجه إلى المنصّة. فشعر بمرارة في قلبه، ومن يدري السبب. ربما لأنه وجد نفسه في ذلك الشاب، كأنه رأى طيفه الفتيّ آتٍ من الزمن الجميل في كويمبرا. أو ربما لأنه يشبهه بشكل أو بآخر، ليس في الملامح، بل بأسلوب المشي الواثق وتصفيف الشعر، فهو يرفع الغرة من جبينه ما إن تتدلى عليه. بدأ الشاب يؤدي أغنية إيطالية "O Sole Mio". لم يفهم بيريرا من الكلمات سوى مطلعها "آه يا شمسي"، لكن الأغنية بحد ذاتها كانت جميلة وسلسلة ومفعمة بالحياة والعنفوان. وبينما كان الشاب يغنّي ارتفعت نسائم الأطلسي من جديد لتنعش المساء. فتفاءل بيريرا ورأى الجمال في كل شيء: حياته الماضية التي لم يرغب بالحديث عنها، ولشبونة، والسماء التي تتضح فوق الأضواء الملونة. وشعر بهبّة حنين عاصفة لكنه يفضّل كتمانها. أدرك، على كل حال، أنّ الفتى الذي يغنّي هو الشخص الذي تحدّث معه على الهاتف في الظهيرة. وعندما انتهت الأغنية، نهض بيريرا من المقعد، فالفضول كان أقوى من تحفظاته، واتجه إلى الطاولة وقال للشاب: أعتقد أنك السيد مونتيرو روسي. تهيأ الشاب للنهوض فاصطدم بالطاولة لتقع زجاجة البيرة الممتلئة على بنطاله الأبيض الأنيق. غمغم بيريرا: أعتذر جداً. فقال الفتى: لا يا سيدي، لقد شردت كالعادة،

Titter: @ketab_n

حضرتك الأستاذ بيريرا من جريدة لشبونيا على ما أظن، تفضل بالجلوس يا سيدي.

يدّعي بيريرا أنه جلس إلى الطاولة والحرج يسيل من وجهه. قال في سرّه إنّ هذا ليس مكانه، وإنّ من غير المنطقي أن يقابل شخصاً لا يعرفه خلال حفلة لتجمّع يؤيد الحاكم، وإنّ الأب أنطونيو لن يغفر له هذه الفعلة. وتمنّى لو استطاع العودة إلى بيته ليخاطب صورة زوجته ويطلب منها المعذرة. فمدّته هذه الأفكار بالشجاعة ليوجّه سؤالاً مباشراً بلا تحسّب، وليفتتح موضوعاً للنقاش ليس إلّا: هذه حفلة لرفاق القائد سالازار، هل أنتم واحد منهم؟

أبعد مونتيرو روسي الغرّة عن جبينه وأجاب: أنا خريّج كلية الفلسفة، أهتم بالأدب والفلسفة، ولكن ما شأن هذا السؤال بجريدة لشبونيا؟.. نحن صحيفة حرة ومستقلة، بيريرا يدّعي أنه أجاب هكذا، ولا نريد أن ندخل في متاهات السياسة.

عاود الموسيقيان العزف أثناء ذلك، وأدّيا أغنية على شرف فرانكو بتلك الأوتار الحزينة. فهم بيريرا، رغم الحرج الذي بان عليه، أنه في لعبة وعليه أن يلعب أيضاً. وانتابه إحساس غريب أنه قادر على ذلك، فهو يملك زمام الأمور، لأنه الأستاذ بيريرا من صحيفة لشبونيا، وأنّ الشاب الذي يجالسه كان يصغي إليه بترقّب. فقال: قرأت مقالك عن الموت، وبدا لي في غاية الأهمية. أجابه مونتيرو روسي: دعني أعترف لك أنّ المقال لم يكن كلّه من بنات أفكاري، فهذا الجزء الذي نشرته المجلة من أطروحتي كنت قد نسخت جزءاً منه من فيويرباخ وجزءاً من أحد الروحانيين الفرنسيين، حتى البروفسور لم يلحظ ذلك، حضرتك تعلم أنّ أساتذة الجامعة هم أجهل مما نتخيل.. يدّعي بيريرا أنه فكر مرتين بالسؤال الذي كان يحضّره طوال السهرة، وقرر أن يطرحه في

Titter: @ketab_n

آخر المطاف. ولكن قبل ذلك طلب مشروباً من النادل اليافع الذي يرتدي قميصاً أخضر. اعذرني، قال لمونتيرو روسي، أنا لا أشرب الكحول، أشرب العصائر فقط، حبذا لو طلبت لي كأساً من الليموناضة. ثم سأل بصوت منخفض وهو يرتشف الليموناضة، كأنّ أحداً ما يراقبه: أود أن أسألك، هل أنت مهتم بالموت؟

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه الشاب، الأمر الذي أحرج بيريرا كما يدّعي. ماذا تقول يا أستاذ بيريرا، هتف الشاب بصوت مرتفع، أنا مهتم بالحياة. ثم تابع بصوت منخفض: اسمعني يا أستاذ بيريرا، لقد سئمت من الموت. كانت والدتي معلّمة برتغالية، وتوفيت منذ عامين على حين غرّة، بجلطة دماغية وهذه كلمة معقدة تعني نزيف في الشريان. عموماً، وفي العام الفائت توفيّ والدي فجأة، وهو إيطالي ويعمل كمهندس بحري في أحواض ميناء لشبونة. لم يترك لي ورثة كبيرة، ولقد أنهيتها كلها منذ مدة. مازالت لديّ جدة تعيش في إيطاليا، ولكني لم أرها منذ أن كنت في سن الثانية عشر وليست لدي رغبة في الذهاب إلى إيطاليا. يبدو لي أنّ الحال هناك أسوأ من هنا. لقد مللت من الموت يا أستاذ بيريرا. اعذرني على صراحتي، ولكن لِمَ هذا السؤال؟

شرب بيريرا من الليموناضة، ونشّف شفتيه بظاهر يده وقال: بكل بساطة لأننا في الجريدة علينا أن ننعي الأدباء الكبار، أي أن نرثي الكاتب المهمّ ما إن يفارق الحياة. ولا يمكننا أن نكتب الرثاء بين ليلة وضحاها، فعلينا أن نجهّزه من قبل. وأنا أبحث عن أحد يكتب هذه المرثيات المسبقة للأدباء الكبار في عصرنا هذا. تخيّل أن يموت موريساك صباح الغد، كيف لي أن أجمع عنه المعلومات وأصيغها في مرثية وأنشرها في مساء الغد نفسه؟

Titter: @ketab_n

يدّعي بيريرا أنّ الشاب طلب بيرة أخرى. لقد شرب ثلاث كؤوس على الأرجح منذ أن عاد من منصة الغناء. ولابدّ أن يكون ثملاً أو منتشياً على الأقل، حسب رأي بيريرا. رفع غرته عن جبينه وقال: أستاذ بيريرا، أنا أتحدث اللغات جيداً وأعرف أدباء حقبتنا هذه، وأحب الحياة. ولكن إذا طلبت مني الحديث عن الموت مقابل أجر ما، كما دفعوا لي الليلة على الأغنية، فأنا مستعد لذلك. وسأقدّم لك ما بعد الغد مرثية عن غارسيا لوركا، ما رأيك بهذا الشاعر؟ إنه مؤسس الطليعية الإسبانية شئنا أم أبينا، مثل بيسوا بالنسبة للبرتغال الذي أسس الحداثة الشعرية البرتغالية. ثم إنه فنان متكامل، اهتم بالشعر والرسم والموسيقى.

يدّعي بيريرا أنه أجاب بأنّ لوركا لا يبدو له الشخص النموذجي، ولكن بإمكانه المحاولة عموماً، شرط أن يلتزم الحذر في التطرق لجانبه الفني فقط، دون التعرض للجوانب الحساسة الأخرى، فالوضع العام متوتر ولا يحتمل مأزقاً من هذا القبيل. فأجاب مونتيرو روسي بأقصى أشكال العفوية: سأكتب عنه ما تريد، ولكن هلّا دفعت لي الأجر مسبقاً يا أستاذ بيريرا؟ بنطالي هذا اتّسخ كلياً وعليّ أن أشتري واحداً جديداً. ثم إنني دعوت فتاة للذهاب إلى السينما مساء الغد، ستأتي بعد قليل وسأعرّفك عليها. إنها زميلتي في الجامعة وأحبّ رفقتها كثيراً.

Titter: @ketab_n

4

يدّعي بيريرا أنّ الفتاة التي جاءت كانت تضع قبّعة من قشّ. كم هي جميلة ببشرتها الفاتحة وعينيها الخضراوتين ويديها الناعمتين. وكانت ترتدي فستاناً ينعقد من الخلف بمشدّين ليرفعا كتفيها ويجعلا من قامتها ممشوقة.

قال مونتيرو روسي: تعالي يا مارتا لأقدّم لك الأستاذ بيريرا. لقد وظّفني هذا المساء في جريدة لشبونيا. إنني صحفي اعتباراً من اليوم، وها قد عثرت على عمل كما ترين. فقالت: تشرفت بمعرفتك. ثم التفتت إلى مونتيرو روسي وقالت له: لا أعرف ما الذي أتى بي إلى حفلة كهذه، ولكن قضي الأمر، فلمَ لا نرقص يا حبيبي؟ فالموسيقى حماسية والسهرة رائعة.

بيريرا يدّعي أنه ظلّ وحيداً على الطاولة. طلب ليموناضة أخرى وشربها على رشفات سريعة وهو ينظر إلى الفتْية يرقصون خدّاً على خدٍّ. ويدّعي أنه في تلك اللحظة عاد به التفكير إلى حياته الماضية، وإلى الأولاد الذي أراد أن يكون أباً لهم، ولكنه لا يحبّذ أن يدلي بتوضيحات أخرى حول هذا الموضوع. عاد الشابان إلى الطاولة بعد أن انتهت الرقصة. وقالت مارتا، بنبرة مستعلية: اشتريت صحيفة لشبونيا اليوم، وللأسف لم أجد أي تنويه عن السائق الذي قتلته الشرطة في آلينتيخو، وكان خبر اليخت الأمريكي يحتلّ الصفحة الأولى، مع أنّي لا أراه ذا قيمة. فأجابها بيريرا، بعد أن جال في نفسه إحساس بالذنب ليس له

Titter: @ketab_n

مبرر: إنّ رئيس التحرير في إجازة، يستجمّ بالمياه الكبريتية في بوساكو، وأنا معنيٌّ بالأمور الثقافية، لأنّ الجريدة - كما تعرفين - ستصدر صفحة ثقافية ابتداء من السبت المقبل وأنا أدير شؤونها.

نزعت مارتا القبّعة ووضعتها على الطاولة، لتنثر شعرها الكستنائي على كتفيها. وكان لشعرها انعكاس أحمر، كما يدّعي بيريرا، يجعلها تبدو أكبر من رفيقها. قد يكون عمرها ستةً وعشرين أو سبعةً وعشرين عاماً. فسألها: وأنت يا مارتا ماذا تفعلين في الحياة؟.. أجابت: أتولى تحرير المراسلات التجارية لشركة استيراد وتصدير، أعمل في الصباح فقط، مما يعطيني الوقت للقراءة أو النزهة في المساء، وغالباً ما ألتقي بمونتيرو روسي. يدّعي بيريرا أنه استغرب كيف تسمّي الفتاة رفيقها بكنيته الكاملة كأنهما زميلين، لكنه لم يعترض بطبيعة الحال وتابع الدردشة مغيّراً الموضوع كلياً: ظننت أنك من شبيبة سالازار. وحضرتك؟ استدركته مارتا. فقال: أوه، لقد انقضت أيام شبابي منذ زمن، ناهيك أنني لا أهتم بالسياسة كثيراً. ولكن بشكل عام، لا أؤيد الأشخاص المتعصبين، ويبدو لي أنّ العالم اليوم بات أغلبه من المتعصبين.. علينا أن نفرّق بين التعصب والإيمان، أجابت مارتا، فمن حقّ الجميع أن يتبنّوا أفكاراً مثالية، كأن يكون الناس أحراراً ومتساويين، ومتآخين أيضاً. اعذرني، إنني أشير إلى الثورة الفرنسية، هل تؤمن بمبادئها؟ نظرياً نعم، أجاب بيريرا، وندم لأنه قال 'نظرياً'، كان عليه أن يقول 'عملياً'، لكنه في النهاية نطق بما كان يفكر. وفي تلك اللحظة بدأ العجوزان يعزفان الفالس، فقالت مارتا: أستاذ بيريرا، هلّا رقصت معي! يدّعي بيريرا أنّه نهض ومدّ يده إليها وقادها إلى ساحة الرقص. ورقص برشاقة، كأنّ كرشه اختفى بسحر ما. كان ينظر إلى السماء فوق الأضواء الملونة لبراسا دا اليغريا، ويشعر بحجمه الصغير

Titter: @ketab_n

نسبةً إلى ذلك الفضاء. فذاب في مدار أفكاره: هنالك رجل بدين وطاعن في السنّ يرقص مع فتاة شابة، في ساحة أياً كانت من هذا الكون، وبينما تدور الكواكب في حركتها الدائمة، ربما يراقبنا أحدهم من مرصد بعيد. ثم عادا إلى الطاولة ويدّعي بيريرا أنّه قال لنفسه: لماذا لم أنجب أولاداً؟ طلب ليموناضة أخرى، وهو يفكر أنّ هذا المشروب مفيد لأنه شعر بتلبّك معوي بسبب الحر الشديد في النهار. وفي هذه الأثناء كانت مارتا تتحدث وهي في أوج ارتياحها وتقول: حدّثني مونتيرو روسي عن مشروعك الصحفي، تبدو لي الفكرة رائعة. فقد حانت لحظة رحيل الكثير من هؤلاء الكتّاب. ولحسن الحظ، منذ بضعة أشهر فقط، مات ذلك الوغد فرانشيسكو رابانيتا، الذي لقّب نفسه 'دانونزيو'. وأعتقد أنّ الوقت حان ليغادرنا المتزمت كلوديل أيضاً، أليس كذلك؟ حقاً، صحيفتكم ذات الميول الكاثوليكية ستتحدث عنه بكل سرور طبعاً. والنذل مارينيتي، سحقاً لقذارته، بعد أن امتدح الحرب والقذائف ارتدى قميص موسوليني الأسود، أفضل ما يفعله هذا الشرير أن يموت بأقرب فرصة ممكنة هو الآخر. يدّعي بيريرا أنه بدأ يتصبب عرقاً، وهمس: آنستي، أخفضي صوتك أرجوك، لا أعرف متى ستدركين أين نحن ومن يحيط بنا. فوضعت مارتا القبّعة على رأسها وقالت: حسناً لقد مللت من هذا المكان، بدأ يثير أعصابي. سترى كيف يعزفون مارشات عسكرية بعد قليل، من الأفضل أن أترككما فلديكما الكثير من الأمور للنقاش، سأذهب إلى نهر التاغو، أرغب باستنشاق هواء منعش، ليلة سعيدة وإلى اللقاء.

بيريرا يدّعي أنه تنفّس الصعداء بعد ذهاب مارتا. أنهى الليموناضة وكاد يتورط بطلب كأس آخر. فقد كان مشوشاً، لأنه لم يكن يعلم بأي ساعة سينصرف مونتيرو روسي من هناك. فسأله: ما رأيك أن

Titter: @ketab_n

نطلب مشروباً آخر؟ فوافق مونتيرو روسي على الفور، وقال إنه سيكون السهرة كلّها تحت تصرّفه لأنّه راغب بالحديث في الأدب. فهو يناقش الفلسفة غالباً لأنّه محاط من أناس تهتمّ بها، ونادراً ما يصادف شخصاً يتحدث إليه في مسائل الأدب. تذكّر بيريرا عمّه حينئذٍ، الأديب الفاشل بكلّ المعايير، وعبارته التي كان يرددها دوماً، فقالها للشاب: "تبدو الفلسفة أنها مهتمّة بالحقيقة فقط، لكنها قد لا تطرح إلا الخيال، فيما يبدو أنّ الأدب مهتمّ بالخيال فقط، لكنه لا يقول إلا الحقيقة". ابتسم مونتيرو روسي لهذا التعريف الذي رآه صالحاً لكلا الفرعين. فسأله بيريرا: كيف تقيّم برنانوس؟ ارتبك مونتيرو روسي قليلاً في البداية وسأل: برنانوس الكاتب الكاثوليكي؟ أومئ بيريرا برأسه مؤكداً، فهمس الشابّ بصوت منخفض: أستاذ بيريرا، إنني، كما أخبرتك اليوم على الهاتف، لا أعير اهتماماً للموت على الإطلاق، ولا أفكر حتى بالدين. أبي كان مهندساً بحرياً، أي أنّه كان رجلاً عملياً يؤمن بالتطور والتقنية، وربّاني على هذا الأساس. صحيح أنه كان إيطالياً، لكنه أنشأني على الطريقة الإنكليزية أغلب الظنّ، برؤية براغماتية للواقع. أنا أحب الأدب كثيراً، ولكن قد لا تنسجم أذواقنا مع بعضها، على الأقل بما يخص بعض الكتّاب، لكنني بحاجة ماسة للعمل وسأكون تحت تصرفك في صياغة المرثيات المسبقة لأي كاتب ترغب به، أو بأي أمر ترغبه إدارة الصحيفة.. يدّعي بيريرا أنّه شعر بهزّة في كبرياءه، وتهيّأ له أنّ الصبيّ المتعجرف يلقّنه درساً في الأخلاق المهنية. فقرر أن يختار هو الصيغة المتكبرة ليجيبه: أنا لا آخذ أوامراً من رئيس التحرير بخصوص الخيارات الأدبية، فأنا مدير الصفحة الثقافية، وأنا من يختار الكتّاب الذين يهمّونني أنا، ولذا قررت أن أوكل إليك هذه الوظيفة وسأترك لك مساحة حرة. كنت أرغب بأن أقترح عليك

Titter: @ketab_n

برنانوس ومورياك لأنهما يعجباني. ولكنني لن أقرر شيئاً، قـــرر أنـــت، افعل ما يحلو لك.. يدّعي بيريرا أنه ندم على هذا العرض السخيّ، فهو يخاطر مع رئيس التحرير بإعطاء حيّزٍ مفتوح لفتى مجهول اعترف بعظمة لسانه أنه نسخ أطروحة التخرج. شعر لوهلة أنّه وقع في فخ، وأدرك أنه زجّ نفسه بموقف سخيف من صنع يديه. ولكن لحسن الحظ اســـتأنف مونتيرو روسي الكلام وراح يتحدث عن برنانوس الذي يعرفه جيـــداً. وقال: برنانوس أديب بارز ورجل شجاع، لا يتوانى عن إطلاع القارئ عمّا يجري في ثنايا روحه. فعادت الراحة إلى نفس بيريرا، كما يدّعي، عند سماعه لتلك الكلمة، الروح. كانت كبلسم أنقـــذه مـــن مـــرض عضال. ثم سأله بأسلوب لا يخلو من السذاجة: هـــل تـــؤمن بقيامـــة الجسد؟.. لم أفكر في الأمر يوماً، أجاب مونتيرو روسي، لكنني أؤكـــد لك أنها ليست مشكلة، بوسعي القدوم غداً إلى المكتب مع مرثية مسبقة عن برنانوس، حتى لو كنت أفضّل غارسيا لوركا بصراحة.. بالتأكيد، قال بيريرا، مكتب القسم الثقافي هو أنا شخصياً، في شارع رودريغو دا فونسيكا رقم 66، بالقرب من شارع الكســـندر هيركولانـــو، علـــى مسافة خطوتين من الملحمة اليهودية. لا تجزعْ من البوابة الشـــمطاء إذا صادفتها عند الدرج، قل لها لديك موعد مـــع الأســـتاذ بيريـــرا. ولا تتحدث معها كثيراً، فقد تكون مخبرة للأمن.

يدّعي بيريرا أنه لا يعرف لِمَ قال ذلك، ربما لأنه كان يكنّ الكره لها وللشرطة السالازارية على حدّ سواء. لكنه حتماً لم يقل ذلك ليخلق تعقيدات وهمية مع شابٍّ لا يزال غريباً عنه. بيريرا يدّعي أنه لا يعرف السبب الحقيقي لكلماته.

Titter: @ketab_n

5

يدّعي بيريرا أنّه وجد شرائح جبن مقليّ مع الخبز، عندما استيقظ في صبيحة اليوم التالي. وكانت الساعة حوالي العاشرة، وقد حضّرت له الخادمة، التي تأتي في الثامنة، ما يأكله على ساعة الغـــداء في المكتـــب. الخادمة بيدادا تعرف ذوقه جيداً، فهو يعشق شرائح الجبن المقلي. شرب فنجان القهوة، واستحمّ، ثم ارتدى السترة وقرر أن لا يضـــع ربطـــة العنق، لكنه خبّأها في جيبه. وقبل أن يخرج، توقّف عند صورة زوجته وقال لها: عرفت شاباً يدعى مونتيرو روسي، وقررت أن أوظّفه عندي كمستكتب، وأوكلت إليه زاوية المرثيات المسبقة. خاب ظنّي بـــه، إذ توقعته لبيباً ولّماحاً لكنه يبدو مدللاً بعض الشيء. من الممكن أن يكون في سن ابننا لو حاولتِ الإنجاب. إنّه يشبهني قليلاً، له غرة شعر تتـــدلى على جبينه. أتذكرين عندما كانت غرّتي تميل على جبيني؟ كان ذلك في أيام الجامعة. حسناً، لا أعرف ماذا أقول لك، سوف نرى، ســـيأتي إلى المكتب بعد قليل، قال إنه سيجهّز مرثية لليوم. لديه رفيقة جميلة شـــابة تدعى مارتا ولون شعرها كستنائي. تتصرف بعفوية تزيد عن حـــدّها وتتحدث بالسياسة. لا بأس، صبراً.

أخذ الترام حتى شارع الكسندر هيركولانو ثم صعد بصعوبة على قدميه حتى شارع رودزيغو دا فونسيكا. وعندما وصل إلى باب المـــبنى كان مبتلاً من العرق، لأن النهار كان حاراً جداً. في الفنـــاء كالعـــادة قالت له البوابة: صباح الخير أستاذ بيريرا. رد التحية بهزة مـــن رأســـه

Titter: @ketab_n

وصعد الدرج. وما إن دخل إلى مكتبه حتى خلع السترة وأشعل المروحة. لم يعرف ماذا يفعل والساعة قاربت منتصف النهار. ففكر أن يأكل الجبن المقلي والخبز، ولكن ساعة الغداء لم تحن بعد. فتذكر زاوية "أحداث تاريخية" وجلس للكتابة: "ثلاثة أعوام على رحيل الشاعر الكبير فرناندو بيسوا. كانت ثقافته انكليزية، لكنه قرر أن يكتب بالبرتغالية لأنه كان يعتقد أنّ وطنه هو اللغة البرتغالية. ترك لنا قصائد عظيمة مبعثرة في المجلات وديواناً بعنوان 'رسالة' يسرد فيه تاريخ البرتغال من وجهة نظر فنان كبير مثله يعشق وطنه". أعاد قراءة ما كتب فوجده مقززاً كما يدّعي. رمى الصفحة في السلة وكتب: "فرناندو بيسوا تركنا منذ ثلاثة أعوام. لم يقرأ شعره الكثيرون، بالكاد لا أحد. عاش وحيداً في البرتغال، كأجنبي، ربما لأنه كان أجنبياً في أماكن أخرى. سكن في غرف متواضعة للإيجار. يذكره أصدقاؤه والمطّلعون وأولئك الذين يعشقون الشعر".

ثم نهش قطعة من الخبز والجبن المقلي. وسمع حينها من يطرق الباب، فأخفى الطعام في الدرج، ونظف فمه بورقة الآلة الكاتبة وقال: تفضّلْ. كان مونتيرو روسي. صباح الخير أستاذ بيريرا، قال، اعذرني ربما جئت قبل الموعد، ولكنني أحضرت لك شيئاً ما. البارحة مساء عندما عدت إلى المنزل جاءني الوحي. كنت أظن أنّ بإمكاني تناول شيء ما في هذ الجريدة. فشرح له بيريرا بتروٍّ أنّ هذا المكتب ليس الجريدة، بل كان القسم الثقافي المنفصل عن مبنى الجريدة العام، وأنه كان لوحده في القسم الثقافي. وتذكّر أنه قد أخبره بذلك في الأمس، أنّ المكتب مجرد غرفة فيها مروحة ومنضدة، لأنّ لشبونيا جريدة صغيرة تصدر في المساء. جلس مونتيرو روسي وأخرج ورقة مطوية، فأخذها منه وقرأها. يدّعي بيريرا أنّ المقال غير قابل للنشر، لأنه يصف الطريقة

Titter: @ketab_n

التي مات بها غارسيا لوركا: "منذ عامين، وبظروف غامضة، تركنا الشاعر الإسباني الكبير فدريكو غارسيا لوركا. مات مقتولاً، وأصابع الاتهام تشير إلى خصومه السياسيين. ومازال العالم بأسره يتساءل كيف من الممكن أن يحدث فعل همجيّ كهذا".

رفع بيريرا رأسه عن الورقة وقال: عزيزي مونتيرو روسي، أنت روائي مبدع، لكن جريدتنا ليست المكان المناسب لكتابة الروايات. في الجرائد يُكتب عادةً عن أمور تتجاوب مع الحقيقة أو تشبه الحقيقة. لا ينبغي بك أن تقول كيف مات كاتب ما، في أي ظروف ولماذا. عليك أن تقول ببساطة أنه مات، ثم تتكلم عن أعماله ورواياته وأشعاره. عليك أن تصيغ مرثية، وتقوم من خلالها بنقده مسلّطاً الضوء على شخصيته وأعماله. أمّا ما تفضّلت بكتابته غير قابل للاستعمال إطلاقاً. وفاة لوركا ماتزال غامضة، فلنفترض أنّ التحقيقات أفضت إلى عكس ما ذكرت أنت، ماذا يكون موقفنا؟

اعترض مونتيرو روسي على أنّ بيريرا لم ينه قراءة المقال، فلو تابع القراءة لشاهد تحليلاً عن العمل والكاتب وعن حجم الإنسان والفنان. فتابع بيريرا القراءة على مضض. كان المقال خطيراً، يتحدث عن عمق إسبانيا، عن إسبانيا الكاثوليكية التي فرّغها لوركا من مضمونها في "بيت برناردا البا". كان يتحدث عن "باراكا" ذلك المسرح المتجول الذي حمله الشاعر إلى الشعب المتعطش للثقافة والمسرح، فأحمد لوركا ظمأ هذا الشعب العظيم، كما يمدحه مونتيرو روسي. يدّعي بيريرا أنه رفع رأسه عن الورقة، ومسح جبينه، ثم أثنى كمّي قميصه وقال: يا عزيزي دعني أكون واضحاً معك، مقالك هذا غير صالح للنشر حقاً، أنا لا أستطيع نشره، ولا تستطيع أي جريدة أخرى في البرتغال أن تنشره، ولا حتى الجرائد الإيطالية، بما أن أصولك إيطالية. هنالك فرضيتان: إما

Titter: @ketab_n

أنّك لا تعي ما تقول وإما أنّك تسعى لتحريض الشارع. والصحافة في البرتغال اليوم لا ترحّب بالمغفّلين ولا بالمحرّضين، هذا كل شيء عندي.

يدّعي بيريرا أنه شعر بخيط عرق يتسرب على طول ظهره عندما كان يتحدث. لماذا بدأ يتعرق؟ ومن يدري. هذا ما لا يستطيع الإجابة عليه بدقة. ربما لأن الطقس حار، ما من شك في ذلك، والمروحة لم تكن كافية لتنعش ذلك المكتب الضيق. أو ربما لأن نظرات الشاب الصبيانية واليائسة كانت تؤلمه، خصوصاً بعد أن أخذ يقضم أظافره بينما كان يستمع إلى الحديث. فلم يمتلك الشجاعة ليقول له: حسناً، كانت تجربة و لم تؤت أكلها، وداعاً. بل ظل يحدّق به، بذراعين متشابكين، إلى أن قال مونتيرو روسي: سأعيد كتابة المقال وأسلّمه إليك غداً. فهبطت الشجاعة على بيريرا ليقول: كلا، لا تكتب عن لوركا أرجوك، هناك الكثير من نواحي حياته وموته لا تتناسب مع جريدة مثل لشبونيا. لا أعلم إن كنت تفهمني يا عزيزي، إسبانيا في هذه الآونة تعيش حرباً أهلية، والسلطات البرتغالية ترى الموضوع من وجهة نظر فرانكو الذي كان الشاعر لوركا يعارضه. بالضبط، هذه هي الكلمة: معارض.

نهض مونتيرو روسي وكأنه خاف من تلك الكلمة. رجع إلى الخلف حتى الباب، وتوقّف، ثم تقدّم خطوة وقال: ظننت أنني حصلت على عمل.. ظلّ بيريرا صامتاً وشعر بخيط العرق على ظهره ثانيةً. ماذا أفعل الآن؟ غمغم مونتيرو روسي بصوت يميل إلى التأوه. يدّعي بيريرا أنه نهض بدوره، وذهب ليقف أمام المروحة ليترك الهواء البارد يجفف قميصه، دون أن يلفظ بحرف لدقائق. عليك أن تكتب مرثية عن موريالك، أجاب، أو عن برنانوس، كما تريد، لا أعرف إن وصلتك رسالتي. تلعثم مونتيرو روسي: لكنني عملت كل الليلة الماضية آملاً أن

Titter: @ketab_n

أحصل على ثمن ما كتبت. وفي الحقيقة لا أطلب أكثر من مبلغ آكل به اليوم.. بيريرا أراد أن يقول إنه في الأمس دفع له مسبقاً ثمن بنطال جديد، وإنه ليس من المنطقي أن يقضي أيامه وهو يعطيه المال كأنه وليّ أمره. أراد بيريرا أن يكون حازماً وجلفاً، لكنه قال: إذا كانت المشكلة في طعام اليوم، فأنا أدعوك للغداء معي. لم أتناول وجبة الغداء بعد وأشعر بجوع طفيف أنا أيضاً. أود تناول السمك المشوي أو شرائح الدجاج مع كعك الخبز، ما رأيك؟

لماذا قال بيريرا ذلك؟ ربما لأنه كان وحيداً تضيق أنفاسه في ذلك المكتب. أو ربما لأنه كان جائعاً حقاً. بل ربما لأنه فكّر بصورة زوجته. أم أنّ السبب مختلف كلّياً؟ هذا ما لا يستطيع بيريرا الإجابة عليه، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

6

رغم ذلك يدّعي بيريرا أنه دعاه إلى الغداء، واختار مطعماً في حيّ الروسيو. بدا له الخيار مناسباً لكليهما، فهما معنيّان بالثقافة، والمطعم كان مقهىً وملتقىً للأدباء. وكان مصدر فخر واعتزاز، فعلى طاولاته، في العشرينيات، تأسست المجلات الطليعية. وكان جميع المثقفين يرتادون ذلك المكان، وقد لا يزال بعضهم يتردد إليه حتى اللحظة.

نزلا شارع افينيدا دا ليبرداد على رسلهما حتى وصلا إلى الروسيو. اختار بيريرا طاولة في الداخل، لأنّ الطقس كان مرتفع الحرارة في الخارج، و لم تكن تلك الخيمة لتحجب وهج الشمس بما فيه الكفاية. يدّعي أنه نظر حوله، فلم يجد أي أديب. إنّ المثقفين جميعهم في عطلة، قال ليكسر الصمت، ربما كانوا في إجازة، منهم من ذهب إلى البحر ومنهم من ذهب إلى الريف، بقينا أنا وأنت وحدنا في المدينة.. أو ربما لا يبرحون منازلهم ببساطة، أجاب مونتيرو روسي، لا ينبغي أن يكون لديهم رغبة في الاستجمام خلال هذه الأوقات العصيبة. يدّعي بيريرا أنه شعر بحنين ما عندما فكر في تلك الجملة. وأدرك أنهما كانا وحيدين، وما من أحد يشاركانه الاستياء العام. كانت هنالك سيدتان ترتدي كل واحدة منهما قبعة صغيرة، وفي زاوية أخرى ثمة أربع رجال ذوو ميول يسارية. اختار بيريرا طاولة منعزلة، وضع المنديل على عنق قميصه، كما كان يفعل دوماً، وطلب نبيذاً أبيض. لدي رغبة بتناول المقبلات، شرح لرفيقه، فأنا لست معتاداً على

Titter: @ketab_n

شرب الكحول، لكنني الآن بحاجة للمقبلات.. طلب مونتيرو روسي زجاجة بيرة، فسأله بيريرا إن لم يكن يعجبه النبيذ الأبيض. أفضّل البيرة، أجاب مونتيرو روسي، إنها منعشة وخفيفة أكثر، ثم إنني لا أشتهي النبيذ. خسارة، همس بيريرا، إن أردت أن تصبح ناقداً جيداً عليك أن تحسّن ذوقك، عليك أن تبني نفسك، وأن تتعرف على النبيذ والمأكولات والعالم. ثم أضاف: والأدب أيضاً. تمتم مونتيرو روسي حينها: عليّ أن أعترف لك بأمر ما، لكنني لا أقوى على ذلك. تفضّل قل ما لديك، قال بيريرا، سأتظاهر بأنني لم أفهم شيئاً. فلنؤجلّ هذا، قال مونتيرو روسي.

يدّعي بيريرا أنه طلب سمكة مشوية، بينما طلب مونتيرو روسي الجازباشو ثم الرز مع الفواكه البحرية. وصل طبق الرز بقدر فخاري كبير وأكل منه الشاب ثلاثة صحون، كما يدّعي بيريرا، أنهاه كله مع أن الكمية كانت كبيرة. ثم رفع الغرة عن جبينه وقال: أرغب بتناول الآيس كريم مع شراب الليمون. أخذ بيريرا يحسب ضمنياً كم سيكلّفه هذا الغداء، واستنتج أنه سيقتطع جزءاً لا بأس به من راتبه الأسبوعي، في مطعم كان يظنّ أنه سيلتقي بأدباء العاصمة على طاولاته، ولكنه لم يجد فيه سوى سيدتين في زاوية وأربع يساريين في زاوية أخرى. بدأ يتصبب عرقاً فنزع المنديل عن عنق قميصه، وطلب مياهاً معدنية باردة وفنجان قهوة، ثم حدّق بعيني مونتيرو روسي وقال: والآن تكلّم بما كنت تريد أن تخبرني به قبيل الطعام. يدّعي بيريرا أنّ الشاب راح ينظر إلى السقف، ثم نظر إليه وأحاد عينيه. تضرج وجهه كطفل صغير، ثم قحّ وقال: أشعر بالحرج، المعذرة. قال بيريرا: لا يوجد شيء في العالم يستحق أن نخجل منه، إلا السرقة أو معصية الوالدين. مسح مونتيرو روسي فمه بالمنديل كأنه أراد أن يمنع خروج الكلمات، رفع غرته عن

Titter: @ketab_n

جبينه وقال: لا أعرف ما أقول، أعلم أنّ حضرتك تشدّد على المهنية واستخدام العقل، ولكن المشكلة أنني فضّلت اتباع منطق آخر. اشرح أكثر، ضغط عليه بيريرا. حسناً، تلعثم مونتيرو روسي، في الحقيقة، لقد اتبعت منطق القلب وربما لم يكن ينبغي عليّ أن أفعل ذلك أو لم أقصد فعل ذلك أصلاً، لكن الأمر كان أقوى مني، أقسم أنني كنت سأستطيع كتابة مرثية عن لوركا بمنطق العقل، لكن الأمر أقوى مني. مسح فمه بالمنديل ثانية وأضاف: ثم إنني أعشق مارتا. وما شأن هذا؟ اعترض بيريرا. لا أعلم، أجاب مونتيرو روسي، ربما لا شأن لهذا، ولكن ألا يبدو لك الأمر متفرعاً من منطق القلب؟ بل قد يبدو لك مشكلة، إذا قسنا الأمور بمعاييرك.. المشكلة أنك تقحم نفسك في مشاكل أكبر منك وأنت بغنىً عنها، أراد بيريرا أن يقول له ذلك. وأراد أن يضيف أنّ المشكلة تكمن في أنّ الحياة عبارة عن مشكلة ولسنا نحن من سيحلّها بالتأكيد. المشكلة أنك ما تزال شاباً في مقتبل العمر وربما كنت من جيل أولادي، لكن هذا لا يعني أن تعتبرني أباك، لست هنا لأحل مشاكلك وأعالج عُقدك، أراد بيريرا أن يقول له ذلك. وأراد أن يضيف: المشكلة أنّ علاقتنا يجب أن تكون مبنيةً على أسس نزيهة ومهنية، وعليك أن تتعلم الكتابة جديّاً وإلا ستعاني بلا شكّ من ورطة بمنتهى التعقيد إن واصلت الكتابة وفق منطق القلب.

لكن بيريرا لم يقل شيئاً من كل هذا. أشعل سيجاراً، نشّف العرق الذي يقطر من جبينه بالمنديل، حلّ الزر الأول من القميص وقال: إنّ منطق القلب هو المنطق الأهم على الإطلاق، ينبغي أن تتبع منطق القلب دائماً يا عزيزي، هذا ما لا تقوله الوصايا العشر لكنني أقوله أنا، ورغم هذا عليك أن تبقى متيقظاً، أنا أوافقك على اتباع منطق القلب، ولكن يستحسن أن تظلّ متيقظاً في الوقت نفسه. وبهذا ينتهي غداؤنا، لا

Titter: @ketab_n

تتصلْ بـــي في الأيام الثلاثة القادمة، سأعطيك الوقت كلـــه لتتأمـــل وتكتب مادة ذا قيمة حقاً، اتصلْ بـــي إلى المكتب حوالي الثانية عشـــر ظهراً السبت المقبل.

نهض بيريرا وصافح الشاب مودّعاً. لماذا قال ذلك عنـــدما كـــان يريد أن يقول عكسه تماماً؟ ألم يكن يرغب في توبيخه وفصـــله مـــن العمل؟ لا يعرف بيريرا بمَ يجيب. تُرى لأن المطعم كان خالياً و لم يلحظ وجود أي أديب فيه، أم لأنه كان يشعر بالعزلة في تلك المدينـــة وهـــو بأشد الحاجة لصديق أو شريك ما؟ ربما بسبب تلك الأســـباب كلـــها وأسباب أخرى لا يعرف كيف يشرحها. من الصعب أن يعثـــر المـــرء على إجابة مقنعة عندما تتعلق المسألة بمنطق القلب، يدّعي بيريرا.

Titter: @ketab_n

7

يدّعي بيريرا أنه، في يوم الجمعة التالي، عندما وصل إلى المكتب، وهو يحمل كيساً من الخبز والمقالي، رأى ظرفاً يتدلى من صندوق البريد المخصص للقسم الثقافي. أمسك الظرف ووضعه في جيبه. ووجد البوابة، في فناء المبنى، تقول له: صباح الخير أستاذ بيريرا، وصلتك رسالة مستعجلة، جاء بها ساعي البريد عند الساعة التاسعة، ووقّعت أنا على استلامها نيابة عنك. شدّ على أسنانه مستاءً، شكرها وهمّ بصعود الدرج. لقد تحمّلت هذه المسئولية عندما لم تكن موجوداً، تابعت البوابة كلامها، ومن الغريب أن أراك متأففاً. يدّعي بيريرا أنه نزل ثلاث درجات، وركّز النظر في وجهها. اسمعي يا سيدة شيليستا، قال لها، أنت تعملين كناطور في هذا المبنى فاكتفي بذلك. يدفع لك سكّان المبنى أجرك لتعملي كناطور، وجريدتي لها مكتب في هذا المبنى، غير أنّك تدخلين أنفك فيما لا يخصك. في المرة القادمة، عندما يصلني البريد لا توقّعي عليه وأبلغي الساعي أن يمرّ في وقت لاحق كي يسلّمني البريد شخصياً. أسندت البوابة المقشة، التي كانت تنظف بها الفناء، إلى الجدار ووضعت يديها على خصرها وقالت: أستاذ بيريرا، قد تخطئ حضرتك في الحديث معي بهذه الطريقة لأنني مجرّد بوابة، ولكن اعلمْ أنّ لديّ صداقات من مستوى رفيع، وعلاقات بأشخاص يستطيعون أن يدافعوا عني ضد أسلوبك هذا غير المهذّب. أفترض ذلك، بل أنا على يقين بالأمر، يدّعي بيريرا أنه أجاب هكذا، وهذا بالضبط ما لا يعجبني فيك، وداعاً.

Titter: @ketab_n

عندما فتح بيريرا باب مكتبه، شعر بأنه منهك القوى وكان يسبح في عرقه. أشعل المروحة وجلس خلف المنضدة. ووضع الخبز والمقالي على ورقة من الآلة الكاتبة وأخرج الرسالة من جيبه. كان العنوان مكتوباً على الظرف بخطّ منمّق وحبر أزرق: أستاذ بيريرا، صحيفة لشبونيا، شارع رودريغو دا فونسيكا 66، لشبونة.. وضع الرسالة بجانب المقالي وأشعل سيجاراً. كان طبيب القلب يمنعه عن التدخين، لكنه كان يرغب بسحب نفختين ليس إلا وقد يطفئه بعد قليل. فكر أن يفتح الرسالة لاحقاً، فعليه أن ينظّم الصفحة الثقافية لعدد الغد حينها، وعليه أن يراجع مادة "الأحداث التاريخية" التي كتبها عن بيسوا، لكنه رآها صالحة للنشر على ما كانت عليه. فأخذ يقرأ حكاية لموباسان، كان قد ترجمها بنفسه، ليدققها ويصحح بعض الأخطاء. فلم يعثر على أي خطأ، وكانت الحكاية جاهزة برأيه فهنّأ نفسه على ذلك. وهذا ما أشعره بأنه في أحسن حال، كما يدّعي. ثم أخرج صورة لموباسان من جيب سترته كان قد انتزعها من إحدى مجلات المكتبة العامة. وكانت لوحة مصغّرة رُسمت بقلم الرصاص من قِبل فنان فرنسي مجهول، يظهر فيها موباسان متجهماً، بلحية ليست مشذّبة وعينان هائمتان في الفراغ. فرآها بيريرا تنسجم بدقة مع فحوى الحكاية، إذ كانت تتحدث عن الحب والموت، ولا تنقصها سوى صورة لكاتبها تميل إلى التراجيديا قليلاً. كان عليه أن يشقّ نافذة صغيرة في وسط الصفحة ليدخل الصورة مع نبذة عن حياة موباسان. فتح القاموس الأدبي الفرنسي الذي كان يضعه على المنضدة دائماً وشرع ينقل منه: "غاي دو موباسان، 1850-1895. ورث هو وأخوه هيرفي، مرض الزهري عن أبيه. ساقه المرض إلى الجنون أولاً، ثم إلى الموت باكراً. في سنّ العشرين شارك بالحرب الفرنسية البروسية، وعمل في

Titter: @ketab_n

وزارة البحرية. كاتب موهوب، ذو رؤية ساخرة، وصف في حكاياته هشاشة إحدى الطبقات الاجتماعية في فرنسا وانعدام أخلاقها. كتب رواياتٍ حظيت باهتمام واسع أيضاً مثل (الصديق الوفيّ) والرواية الخيالية (هورلا). أصيب بأزمة نفسية حادة فنقل إلى مصحة الطبيب بيانش حيث مات فقيراً ومعزولاً".

ثم قرّب إليه الخبز والمقالي وهش منها قليلاً ورمى بالباقي في السلة لأنه لم يكن جائعاً، فالطقس كان حاراً جداً كما يدّعي. فتح الرسالة، وكانت عبارة عن مقال مضروب على الآلة الكاتبة، على ورق شفاف، يحمل عنواناً: "ورحل فيليبو تومازو مارينيتي". أحسّ بغصة في قلبه لأنه فهم، دون أن يقلب الصفحة، أنّ الكاتب كان مونتيرو روسي. وسرعان ما أدرك أنّ المقال لن يفيده بشيء، فهو أراد مرثية عن برنانوس أو موریاك، لأنهما على الأرجح كانا يؤمنان بقيامة الجسد. أما هذه فمرثية عن مارينيتي، الشاعر الذي يؤمن بالحرب. أكمل بيريرا القراءة، واكتشف أنّ المقال صالح للرمي في سلة المهملات حالاً، لكنه لم يرمه. ومن يدري لَم احتفظ به، اعتقد أنه من الممكن صياغته كوثيقة. إذ كان يبدأ هكذا: "مع رحيل مارينيتي يتلاشى العنف، فلطالما جاهر بعبادته للعنف. بدأ هذا الرجل عام 1909 بنشر بيان المستقبليين في جريدة باريسية، يمتدح فيه أساطير الحرب والعنف. كان عدو الديمقراطية، مؤيداً للحرب وداعياً لها. امتدح الحرب بقصيدة شاذة بعنوان (زانغ تومب تومب)، كتوصيف صوتي للقذائف وقرع طبول الحرب الإيطالية في استعمار إفريقيا. دفعه الولع بالاستعمار ليمدح احتلال الامبراطورية لليبيا. وكتب بياناً مقززاً في تلك الآونة عنوانه (في الحرب وحدها خلاص العالم). يظهر في صوره الشخصية بوضعيات عنجهية، وشارب كثيف وبزّة أكاديمية مليئة بالميداليات التي لم تكن

Titter: @ketab_n

الفاشية الإيطالية لتتوانَ عن تقديمها له، وهو الذي كان مستكلباً في دعم سياساتها. رحل إذن هذا الشخص البذيء والمحرّض على الحروب..".

توقف بيريرا عن قراءة المقالة المكتوبة على الورق الشفاف، ومرّر عينيه على رسالة مرفوقة بها كُتبت بخط اليد: "السيد الأستاذ بيريرا المحترم، لقد اتبعت منطق القلب، كما نصحتني. فالذنب ليس ذنبي إن كانت المرثية غير صالحة للنشر. ومن يدري، ربما يعيش مارينيتي عشرين سنة أخرى. على كل حال، سأكون ممتناً لحضرتك إن دفعت لي شيئاً ما مقابل هذه المقالة. لن أستطيع المجيء إلى القسم الثقافي لأسباب لن أشرحها لك الآن. إن أردت أن ترسل لي مبلغاً، ولو صغيراً إن شئت، بإمكانك أن تضعه في ظرف وتكتب عليه اسمي وترسله إلى صندوق البريد 202 البريد المركزي، لشبونة. سأتواصل معك عبر الهاتف. أطيب التحيات والأمنيات من تلميذكم مونتيرو روسي".

وضع بيريرا المرثية والرسالة في مجلد ضمن الأرشيف، وكتب على بطاقة المجلد "مرثيات". ثم جمع أوراق حكاية موباسان على المنضدة، ورقّم صفحاتها، وارتدى السترة، وخرج متوجهاً إلى المطبعة. وكان يتعرّق ويشعر بالضيق ويتمنى أن لا يلتقي بالبوابة، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

8

يدّعي بيريرا أنّ جرس الهاتف رنّ في تمام الثانية عشر من ظهيرة يوم السبت. لم يجلب الخبز والمقالي إلى المكتب يومها، لأنه كان يحاول أن يخفف من الوجبات من حين لآخر بحسب نصائح الطبيب من جهة، ولأنه كان يستطيع تناول وجبة البيض المخفوق في اوركيديا كافيه دائماً كلّما استسلم للجوع من جهة أخرى.

صباح الخير أستاذ بيريرا، أنا مونتيرو روسي. قال بيريرا: كنت أنتظر اتصالك، أين أنت؟ أجابه مونتيرو روسي: أنا خارج المدينة. فأصر بيريرا: عفواً، خارج المدينة أين بالضبط؟ كرر مونتيرو روسي جوابه: خارج المدينة. يدّعي بيريرا أنّ هذه الطريقة الحذرة والرسمية في الكلام أغاظته قليلاً، إذ كان ينتظر منه وداً وامتناناً أكبر من ذلك، ولكنه كظم غيظه وقال: أرسلت لك النقود إلى البريد المركزي. شكراً، قال مونتيرو روسي، سأذهب لاستلامه. و لم يقل شيئاً آخر. فسأله بيريرا: متى تفكر بالمجيء إلى المكتب؟، من المناسب أن نتحدث وجهاً لوجه ربما. فردّ مونتيرو روسي: لا أعرف متى سأستطيع المجيء إليك، في الحقيقة كنت سأكتب لك رسالة كي نحدد موعداً في مكان ما، ولكن ليس في المكتب إن أمكن. يدّعي بيريرا أنه استشعر الخطر حينها، فأخفض صوته كما لو أن أحداً غيرهما بوسعه سماع المحادثة، وسأله: هل لديك مشاكل؟ لم يجب مونتيرو روسي مما جعل بيريرا يظن أنه لم يفهم ما قاله فكرر: هل لديك مشاكل؟. ردّ مونتيرو روسي: لا

Titter: @ketab_n

أخفيك أنني أمر ببعض المشاكل، لكنها ليست الفرصة المناسبة للحديث بها، سأكتب الآن رسالة لنحدد موعداً في بحر الأسبوع، في الواقع أنا بحاجة لمساعدتك يا أستاذ بيريرا، سأخبرك بالأمر حين نلتقي، والآن معذرةً عليّ أن أنهي المكالمة فالمكان الذي أهاتفك منه ليس مريحاً كفاية، أشكرك على رحابة صدرك، إلى اللقاء.

سمع بيريرا طنين السماعة فأغلق من جهته أيضاً. يدّعي بيريرا أنه توتّر قليلاً. لكنه أخذ يفكر بم عليه أن يفعل، فتوصّل إلى قرار. كان سيذهب ليشرب الليموناضة في اوركيديا كافيه على كل حال، وسيبقى هناك ليتناول البيض المخفوض أيضاً. وفي العصر، قد يأخذ قطاراً إلى كويمبرا ليذهب إلى حمة بوساكو الكبريتية، علّه يتنزه في الحدائق ويشرب من مياه الحمة الطبية، وعلّه يخضع لعلاج التنفس بالبخار أيضاً. لمَ لا؟ فهو كان يعاني من ضيق في التنفس ويضطر لفتح فمه كي يستنشق جيداً، خصوصاً عندما يصعد السلالم. قد يلتقي برئيس التحرير، لابدّ من هذا، مع أنّ بيريرا لم يكن لديه رغبة بالحديث إليه، لكنه سيتذرع بشيء ما كي لا يبقى برفقته، إذ لديه صديق هناك. إنه سيلفا الذي كان يقضي إجازته هو الآخر وقد دعاه إلى بوساكو مراراً. سيلفا صديق قديم من أيام الدراسة في كويمبرا، والآن يدرّس الأدب في جامعة تلك المدينة. وهو رجل مثقف وأعزب، يتميز بالهدوء ورجاحة التفكير، وحبّذا لو يقضي معه بضعة أيام.

ترك رسالة معلقة على باب المكتب: "سأعود في منتصف الأسبوع، بيريرا". لحسن الحظ لم يلتق بالبوابة عند الدرج وهذا ما أراحه. خرج إلى ضوء الشمس المبهر في منتصف النهار واتجه نحو اوركيديا كافيه. وعندما مرّ بجانب الملحمة اليهودية، وجد جمعاً من الناس فتوقّف. لاحظ أنّ زجاج المحلّ كان مكسّراً وأنّ الواجهة كانت

Titter: @ketab_n

ملطخة بعبارات مفادها أنّ الملحمة اليهودية لابدّ أن تُغلق ولو بالقوة. تجاوز جموع الناس واقترب من الشاب ماير، صاحب الملحمة الذي يعرفه جيداً. فكان يعرف والده من قبل، ويصطحبه مراراً لشرب الليموناضة في المقاهي على طول النهر. ثم توفي العجوز ماير وترك الملحمة لابنه دافيد، الشاب البدين ذو الكرش الناتئ رغم صغر سنه وحيويته. اقترب بيريرا من الفتى وسأله: دافيد، ما الذي حدث؟ انظر بنفسك يا أستاذ، أجاب دافيد وهو ينشّف يديه المتسخة من الطلاء بالمريول، نعيش في عالم كله منحرفون. هل اتصلت بالشرطة؟، سأل بيريرا. الشرطة!، قال دافيد مستهزئاً، تصوّرْ أن أتصل بالشرطة. وتابع محو العبارات بالطلاء الأبيض. فاتجه بيريرا نحو المقهى وجلس في الداخل قرب المروحة. طلب كأس الليموناضة ونزع السترة. هل سمعت ما حدث يا أستاذ بيريرا؟ قال مانويل. هزّ رأسه وسأل: هل تقصد الملحمة اليهودية؟ أيّ ملحمة يهودية يا أستاذ، قال مانويل وهو يمضي، هنالك ما هو أسوأ.

طلب بيريرا البيض المخفوق مع الأعشاب المنكهة، وأكلها على مهل. لم يكن لديه الوقت ليقرأ جريدة لشبونيا التي تصدر في الخامسة مساء، فعليه أن يأخذ القطار المتجه إلى كويمبرا. رغب أن يأخذ معه جريدة الصباح، ولكنه شكك في أن تتحدث الجرائد البرتغالية عمّا ألمح إليه النادل. لكي يعلم المرء ما الذي يحصل عليه إمّا أن يسأل الناس ويستمع إلى أحاديثهم ويكثر من ارتياده للمقاهي، حيث الأخبار تنتقل من فم لآخر بسهولة، هذه هي الطريقة الوحيدة لمواكبة التيار، أو ربما شراء صحيفة أجنبية من أرصفة شارع دو اورو، لكن الصحف الأجنبية، إن وصلت، تصل متأخرة بيومين أو ثلاثة، فمن غير المجدي أن يبحث المرء عن جريدة أجنبية إذن. الأفضل أن لا يعير اهتماما لشيء

Titter: @ketab_n

ولا يستفسر من أحد، فهو كان سيذهب إلى الأحواض الكبريتية لينعم ببضعة أيام هادئة، ويتحدث مع البروفسور سيلفا صديقه، ويتناسى شرور العالم. شرب ليموناضة أخرى، ودفع الحساب، وخرج. ذهب إلى البريد المركزي وأرسل برقيتين، واحدة إلى فندق الحمة لحجز غرفة، وأخرى إلى صديقه سيلفا: "سأصل إلى كويمبرا هذا المساء / إن استطعت أن تأتي لتأخذني بالسيارة سأكون ممتناً لك / شكراً، بيريرا".

ثم اتجه إلى منزله ليحضّر الحقيبة على رسله، فبطاقة القطار كان سيحجزها من المحطة مباشرة. أجل، فمازال هنالك مزيد من الوقت، يدّعي بيريرا.

Titter: @ketab_n

9

يدّعي بيريرا أنه عندما وصل إلى محطة كويمبرا كان الغروب يطبق على المدينة بشكل مدهش. نظر حول السكّة فلم يجد صديقه سيلفا. حسب أنّ البرقية لم تصل بعد أو أنّ سيلفا كان قد غادر الحمة من قبل. وعندما دخل إلى باحة المحطة، وجده جالساً إلى مقعد ويدخّن سيجارة. فشعر بالسعادة وذهب نحوه. لم يلتقيا منذ وقت طويل، تعانقا وحمل الصديق حقيبة صديقه، وتوجّها نحو السيارة. كان لدى سيلفا سيارة شفروليه سوداء مريحة وواسعة، ومصنوعة من معدن الكروم البرّاق.

كان الطريق إلى الحمة يعبر المنحيات بين الهضاب المزدانة بالأخضر. فتح بيريرا النافذة لأنه بدأ يشعر بالإعياء، ويدّعي أنّ الهواء المنعش أحاطه بالارتياح. لم يتكلّم وصديقه كثيراً أثناء الرحلة. كيف تقضي أيامك؟ سأل سيلفا. لا بأس، أجاب بيريرا. هل تعيش لوحدك؟ سأل سيلفا. أجل، أعيش وحيداً، أجاب بيريرا. لا أرى أنّ الوحدة تناسبك، قال سيلفا، عليك أن تجد امرأة ترافقك وتملأ وقتك بالهناء، أقدّر المعزّة التي تكنّها لذكرى زوجتك، ولكن لا يجدر بك أن تقضي بقية حياتك وأنت تجني الذكريات. لقد هرمت، قال بيريرا، إنني بدين جداً وأعاني من مرض القلب. قال سيلفا: لست عجوزاً على الإطلاق، إنك من عمري، وبالنسبة للبدانة فيكفي أن تتّبع حمية مناسبة وتستمع بإجازة من حين لآخر وتهتمّ بصحتك. حسناً، قال بيريرا.

Titter: @ketab_n

يدّعي بيريرا أنّ الفندق في الحمة كان رائعاً، وكان مبنياً من الصخر الأبيض ومحاطاً بحديقة كبيرة. صعد إلى غرفته ليغيّر ملابسه. وارتدى طقماً فاتح اللون وربطة عنق سوداء. وكان سيلفا بانتظاره في البهو يشرب الكحول. سأله بيريرا إن كان قد صادف رئيس التحرير. تلفّت سيلفا من حوله وقال: إنه يتعشى دوماً مع نزيلة في الفندق، وهي سيدة شقراء متوسطة السن، يبدو أنه وجد رفيقة له. هكذا أفضل، قال بيريرا، هذا يعفيني من محادثة رسمية.

دخلا إلى المطعم. كانت الصالة تعود للقرن الثامن عشر، فيها رسومات نباتية على الجدران وأوانٍ للأزهار على السقف. وكان المدير يتعشى على طاولة في وسط الصالة برفقة سيدة ترتدي فستان سهرة أنيق. رفع رئيس التحرير رأسه فرآه، فانطبعت الدهشة على وجهه ولوّح بيده داعياً إياه للاقتراب. فتقدّم بيريرا نحوه بينما اتجه سيلفا إلى طاولة أخرى. مساء الخير أستاذ بيريرا، قال رئيس التحرير، لم أتوقع أن ألقاك هنا، ألا ينبغي أن تكون في القسم الثقافي؟ فأجابه بيريرا: لقد أصدرت الصفحة الثقافية اليوم، لا أعلم إن استطعت حضرتك أن تلقي نظرة عليها لأن الجريدة ربما تتأخر في الوصول إلى بوساكو، ترجمت فيها حكاية لموباسان وزاوية عن أحداث ثقافية تاريخية عملت عليها بنفسي، على كل حال لن أبقى هنا أكثر من يومين، سأعود الأربعاء إلى لشبونة لأحضّر الصفحة الثقافية للسبت القادم. سيدتي اعذريني، قال رئيس التحرير ملتفتاً إلى شريكته، أقدّم لك الأستاذ بيريرا، مساعدي في الجريدة. ثم التفت إلى بيريرا: وهي السيدة ماريا دوفالي سانتاريس. أومأ بيريرا برأسه محيياً السيدة. قال: سيدي، أودّ أن أطلب من حضرتك شيئاً، كنت أفكّر في توظيف شابّ يساعدني في المرثيات المسبقة للكتّاب الكبار الذين قد يموتون بين لحظة وأخرى. أوه أستاذ

Titter: @ketab_n

بيريرا، هتف رئيس التحرير، إنني أتعشى هنا برفقة سيدة جميلة ومرهفة وأتحدث معها بأشياء مسلية، وحضرتك تأتي لتخبرني عن أشخاص على وشك الموت، هل ترى ذلك لائقاً؟ معذرة يا سيدي، يدّعي بيريرا أنه أجابه هكذا، لا أقصد الأستذة عليك في المهنة، ولكننا - في الصفحات الثقافية - مرغمون أن نحضّر ما نقوله عن رحيل أحد الأدباء الكبار، فإذا توفيّ أحدهم فجأة من الصعب أن نرثيه في ليلة وضحاها. ربما تذكر، منذ ثلاثة أعوام، عندما توفي تي. ال. لورنس لم تأت على ذكره أي جريدة برتغالية في حينها، وتأخروا برثائه حوالي أسبوعاً كاملاً. ونحن، إن أردنا أن نكون جريدة حديثة، علينا أن نواكب الخبر لحظة بلحظة. مضغ رئيس التحرير اللقمة بعصبية وقال: حسناً حسناً أستاذ بيريرا، أذكر أنني تركت لك مطلق الصلاحية في الصفحة الثقافية، لا يهمّني سوى إمكانيات الموظف والتكلفة المادية. أجاب بيريرا: بخصوص هذا فإنّ الشاب يبدو لي متواضعاً وقنوعاً، ثم إنه تخرّج برسالة عن الموت من جامعة لشبونة، يفهم بالموت إذن. قام المدير بحركة قاطعة بيده، شرب من النبيذ وقال: اسمع يا أستاذ بيريرا أتوسل إليك ألّا تحدّثني عن الموت ثانية، ستكدّر سهرتنا يا رجل، أمّا بالنسبة للصفحة الثقافية فافعل ما يخطر برأسك، أنا أثق بحضرتك، فلقد عملت في الصحافة والأخبار لثلاثين عاماً، أتمنى لك سهرة سعيدة وشهية طيبة.

توجه بيريرا إلى طاولته وجلس مقابل صديقه. سأله سيلفا إن كان يريد كأساً من النبيذ الأبيض فحرّك بيريرا رأسه رافضاً. أشار إلى النادل وطلب كأس ليموناضة. النبيذ لا يناسبني، بيريرا يعلل، قال لي الطبيب ذلك. طلب سيلفا سمك السلمون وبيريرا شرائح اللحم وصلصة البصل وبيضة مقلية فوقها. كان الصمت يهيمن على عشائهما، حتى قطعه بيريرا في لحظة معينة سائلاً صديقه عن رأيه بكل ما يحدث. ماذا تقصد

Titter: @ketab_n

بالضبط؟ ردّ سيلفا السؤال. كل شيء، قال بيريرا، ما يحدث في أوروبا الآن. أوه لا تقلق، أجاب سيلفا، نحن هنا لسنا في أوروبا، إننا في البرتغال. يدّعي بيريرا أنه أصرّ: أجل ولكنك تقرأ الجرائد وتسمع المذياع، وتعرف ما الذي يجري في ألمانيا وإيطاليا حيث وصل إلى الحكم متطرفون ينوون وضع العالم بأسره على الحديد والنار. لا تقلق يا عزيزي، قال سيلفا، نحن بعيدون. حسناً، قال بيريرا، لكن إسبانيا ليست بعيدة، إنها على بعد خطوتين، وأنت تعلم ما الذي يحدث في إسبانيا من مجازر، مع أنه توجد حكومة دستورية، كل الذنب يقع على عاتق جنرال منافق. حتى إسبانيا بعيدة، قال سيلفا، نحن هنا في البرتغال. ربّما، قال بيريرا، ولكن الأمور ليست على ما يرام حتى هنا في بلدنا، الشرطة تتصرف كأنها السلطة المطلقة، تعتقل المواطنين وتذبحهم وتراقب دبيب النمل، وهذا حكم ديكتاتوري، لم يعد للناس قيمة ولا حتى للرأي العام. وضع سيلفا الملعقة جانباً وحدّق بصديقه قائلاً: اسمعني جيداً يا بيريرا، هل مازلت تؤمن بالرأي العام؟ إنّ الرأي العام خدعة كبرى اخترعها البريطانيون والأمريكان، إنهم يحتالون علينا بفكرة الرأي العام، نحن لم يكن لدينا نظامهم السياسي أبداً، وليس لدينا تقاليدهم، ولا نعرف ما معنى اتحاد نقابات العمال، نحن شعوب الجنوب يا بيريرا، نخضع لمن يستخدم عضلاته ويصرخ أكثر من الآخرين. اعترض بيريرا: نحن لسنا شعباً من الجنوب، في عروقنا تجري دماء سلتية. لكننا نعيش في الجنوب، قال سيلفا، طقسنا لا يساعد الأفكار السياسية الحديثة على النضوج، "laissez faire, laissez passer"[1] لا تناسب مناخنا، هكذا خُلقنا، ثم اسمع جيداً ما سأقول لك، أنا أدرّس الأدب وأفهم فيه،

1 الجملة واردة باللغة الفرنسية، وتعني: دعه يمرّ، دعه يعمل. المترجم.

Titter: @ketab_n

وحالياً أقوم بدراسة عن مطربينا القدماء وأغنيات الحب عندهم، لا أعلم إذا مازلت تذكرها من دروس الجامعة، عموماً، كان الشبّان ينطلقون إلى الحرب وتبقى النساء في البيوت تبكين على فراقهم، وكان هؤلاء المطربون يجمعون آهات النساء ويغنّونها فيما يبقى الملك على عرشه، أتفهم؟ كان الزعيم يحكم، وكنا - ولا زلنا - بحاجة لزعيم. أجاب بيريرا: لكنني صحفي. وماذا يعني هذا؟ سأل سيلفا. هذا يعني أنني يجب أن أكون حراً، قال بيريرا، وأن أخبر الناس بطريقة نزيهة. وما الرابط بين هذا وذاك؟، قال سيلفا، أنت لا تكتب مقالات في السياسة، أنت مدير صفحة ثقافية. فوضع بيريرا الشوكة جانباً بدوره، وأسند مرفقيه إلى الطاولة. اسمعني جيداً أنت، أجاب، تخيّلْ أن يموت مارينيتي غداً، هل تعرف من يكون مارينيتي؟ أعرفه بشكل عام، أجاب سيلفا. حسناً، تابع بيريرا، إنّ مارينيتي شاعر تافه، استهلّ مشواره الشعري بمديح الحرب، واتخذ من المذبحة مبدأ، إنه إرهابي بحت، لقد رحّب بالزحف الفاشي إلى روما، إنه شخص تافه وعليّ أن أقول هذا علناً. اذهب إلى إنكلترا إذن، قال سيلفا، هناك بوسعك أن تقول ما تريد، وسيكون لديك العديد من القرّاء. أهوى بيريرا آخر لقمة من اللحم. سأذهب إلى سريري كي أنام، قال، فانكلترا بعيدة جداً. ألا ترغب بالحلوى؟ سأله سيلفا، أرغب بتناول قطعة حلوى. الحلوى تؤذيني، قال بيريرا، نصحني الطبيب بالامتناع عنها، ثم إنني متعب من السفر، شكراً لأنك استقبلتني من المحطة، ليلة سعيدة، نلتقي غداً. ونهض دون أن يقول كلاماً آخر. يدّعي أنه كان متعباً جداً.

Titter: @ketab_n

10

في اليوم التالي استيقظ بيريرا في السادسة صباحاً. يدّعي أنه احتسى القهوة، مصراً على تناولها قبل أن تبدأ خدمة تنظيف الغرف في السابعة حصراً. وتنزه قليلاً في الحديقة ريثما تفتح الحمة أبوابها، في السابعة أيضاً. وفي السابعة تماماً كان بيريرا ينتظر عند مدخل الحمة. لم يكن سيلفا موجوداً، ولا رئيس التحرير أيضاً. لم يكن ثمة أحد عملياً، مما أشعر بيريرا بالارتياح، كما يدّعي. شرب أولاً كأسين من ماء لها طعم البيض النافق فأصيب بإعياء عام وتخبّط في المعدة. رغب بليموناضة منعشة، فالطقس كان حاراً رغم ذلك الوقت الباكر. لكنه توقّع أنه لن يستطيع خلط الليموناضة بماء الحمة، فذهب إلى البركة الحارة حيث أنزعوه ثيابه وألبسوه رداءً أبيض. هل تفضّل حماماً بالطين أم علاجاً بالبخار؟ سألته الموظفة. الاثنان معاً، أجابها بيريرا. أجلسوه في غرفة كان فيها حمّام صخريّ مليء بسائل بني. نزع الرداء ودخل في الحوض. كان الطين دافئاً ويعطي إحساساً بالرفاهية. دخل أحد الخدم حينها وسأله إن كان يرغب بالتدليك، فأجابه بيريرا بلا، وودّ لو يدعونه وشأنه. خرج من الحوض، واستحمّ بمياه باردة، ولبس الرداء ثانية ومرّ بالأنسجة المتشابكة التي تنفخ الهواء الساخن. كان هنالك سادة يجلسون مسندين مرافقهم إلى المصطبة، ويستنشقون أثير البخار. وجد بيريرا مكاناً شاغراً فجلس فيه. تنفس بعمق لبضع دقائق وغرق في أفكاره. فخطر بباله مونتيرو روسي، ومن يدري لماذا،

Titter: @ketab_n

وصورة زوجته أيضاً. لقد مرّ يومان منذ أن تحدّث إلى الصورة آخر مرة، فتندم لأنه لم يجلب الصورة معه، كما يدّعي. نهض حينها، وذهب إلى المشالح ليرتدي ثيابه. ووضع ربطة العنق السوداء، وخرج من مقرّ الحمة ودخل إلى الفندق ثانية. كان سيلفا في صالة المطعم يتناول فطوراً عامراً من القهوة والحليب والمعجنات. أمّا رئيس التحرير فلم يكن قد استيقظ بعد لحسن الحظ. اقترب بيريرا من صديقه ملقياً عليه التحية، وقال له إنه ذهب إلى الحمة. ثم أضاف: ثمة قطار إلى لشبونة حوالي الثانية عشر ظهراً، سأكون ممتناً لك إن رافقتني إلى المحطة، وإلا طلبت سيارة الأجرة من الفندق. أتريد المغادرة بهذه السرعة؟ استغرب سيلفا، كنت أتمنى أن نقضي معاً وقتاً أطول. اعذرني يا صديقي، بيريرا يكذب، ولكن يجب أن أكون في لشبونة هذا المساء، وعليّ أن أكتب مقالاً مهماً في الغد، ثم إنك تعرفني جيداً، لا يطيب لي أن أترك المكتب تحت رحمة البوابة، يستحسن أن أعود. كما تشاء، أجاب سيلفا، سأرافقك.

لم ينبسا ببنت شفة خلال الطريق. يدّعي بيريرا أنّ سيلفا كان يبدو ممتعضاً منه، لكنه لم يفعل شيئاً لترطيب الأجواء. لا بأس، قال بيريرا لنفسه، لا بأس. وصلا إلى المحطة حوالي الحادية عشر والربع وكان القطار مستعداً للانطلاق. صعد بيريرا وودّع صديقه من النافذة ثم دخل إلى مقصورة كانت فيها سيدة تقرأ كتاباً.

كانت سيدة جميلة شقراء وأنيقة، لها ساق خشبية. وبما أنها كانت جالسة عند النافذة فضّل أن يجلس قرب الممر كي لا يزعجها. ولاحظ أنها تقرأ كتاباً لتوماس مان بالألمانية. دفعه هذا للفضول، لكنه لم يقل شيء حتى اللحظة سوى: صباح الخير سيدتي. تحرّك القطار في الحادية عشر والنصف، وبعد دقائق قليلة مرّ الخادم ليأخذ الحجوزات في

Titter: @ketab_n

المطعم. يدّعي بيريرا أنه حجز للغداء لأنه شعر بتخبّط في معدته وكان بحاجة لأن يأكل شيئاً. ربما لم تكن الرحلة طويلة لكنه سيصل متأخراً إلى لشبونة ولن يكون راغباً بالبحث عن مطعم في ذلك الطقس الحارّ.

حتى السيدة، ذات الساق الخشبية، حجزت لوجبة الغداء في مطعم القطار. لاحظ بيريرا أنها تتحدث البرتغالية بطلاقة، بلكنة أجنبية خفيفة. وهكذا تفاقم فضوله، كما يدّعي، حتى جاءته الشجاعة ليدعوها. سيدتي، قال، اعذريني، لا أريد أن أكون ثقيل الظلّ، لكنني أرغب أن نتناول الغداء معاً على نفس الطاولة، كوننا رفاق سفر وحجزنا كلينا في المطعم، علّنا نتحدث قليلاً كي لا نشعر بالعزلة، فمن المؤسف أن يأكل المرء لوحده، وخصوصاً في القطار، اسمحي لي أن أقدّم نفسي، أنا الأستاذ بيريرا مدير الصفحة الثقافية لمجلة لشبونيا، جريدة مسائية تصدر في العاصمة لشبونة. ابتسمت السيدة وصافحته. تشرفت بمعرفتك، قالت، أدعى انجي بيرغ ديلجادو، إنني ألمانية من أصول برتغالية، عدت إلى البرتغال لأبحث عن جذوري.

مرّ الخادم يقرع الجرس لينادي إلى الغداء. فنهض بيريرا وقدّم السيدة ديلجادو عليه. يدّعي أنّ الشجاعة لم تصل إلى حدّ أن يمدّ يده إليها، فقد تكون حركة من هذا النوع مهينة لسيدة بساق خشبية. لكن السيدة ديلجادو تحركت برشاقة ملحوظة رغم ساقها المصطنعة وسبقت بيريرا في الممر. كانت صالة المطعم قريبة من المقصورة، مما ساعدها أن لا تمشي طويلاً. جلسا إلى طاولة في الجناح الأيسر. وضع بيريرا المنديل على عنق قميصه وشعر بحاجة للاعتذار عن تصرّفه هذا. اعذريني سيدتي، قال لها، عندما آكل يتسخ قميصي دوماً، الخادمة تقول إنني أسوأ من الأطفال، أرجو أن لا أظهر قروياً.. وكانت المناظر الرائعة من وسط البرتغال تمرّ خلف النافذة. الهضاب الخضراء وأشجار الصنوبر

Titter: @ketab_n

والقرى البيضاء. ويظهر بعض الفلاحين بين المزارع والكروم والحقول من حين لآخر. هل يعجبك البرتغال؟ سألها. أجل، أجابته، لكني لا أظنّ أنني سأبقى هنا طويلاً، لقد زرت أقاربي في كويمبرا، ووجدت جذوري، لكنه ليس البلد المثالي بالنسبة لي ولا للشعب الذي أنتمي إليه، أنتظر التأشيرة من السفارة الأمريكية، سأنطلق إلى الولايات المتحدة بعد فترة قصيرة، أتمنى ذلك على الأقل. توقّع بيريرا أنه فهم المسألة: هل حضرتك يهودية؟ فأكدت له السيدة: أجل، وأوروبا في هذه الآونة ليس المكان المناسب لشعبي، وبالأخص ألمانيا. وهنا لا يستلطفوننا أيضاً، أنتبه إلى ذلك في الجرائد، ربما الجريدة التي تعمل فيها حضرتك استثنائية، حتى لو كانت كاثوليكية زيادة عن اللزوم، كاثوليكية جداً لمن ليس كذلك. بيريرا يدّعي أنه أجابها: هذا البلد كاثوليكي، وأنا كاثوليكي أيضاً، ولكن على طريقتي، للأسف كان عندنا محاكم تفتيش وهذا لا يشرّفنا. أنا، على سبيل المثال، لا أؤمن بقيامة الجسد، ولا أعرف إن كان هذا يعني شيئاً ما. لا أعلم ما الذي يعنيه، قالت السيدة، لكني أعتقد أن هذا لا يخصّني. لاحظت أنك تقرئين كتاباً لتوماس مان، قال بيريرا، أحبّ هذا الكاتب كثيراً. حتى هو ليس سعيداً لما يحدث في ألمانيا، قالت السيدة. فأكّد بيريرا: وربما أنا أيضاً لست سعيداً لما يحدث في البرتغال. شربت السيدة من المياه المعدنية وقالت: فافعل شيئاً ما إذن. مثل ماذا؟، سأل بيريرا. حسناً، قالت السيدة، أنت مثقف، تكلّمْ عمّ يحدث في أوروبا، عبّرْ عن رأيك الحرّ، افعل شيئاً ما. يدّعي بيريرا أنه أراد أن يقول أشياء كثيرة. أراد أن يجيبها أنّ ثمة رئيس التحرير وهو واحد من أذناب النظام، وهنالك الرقابة والشرطة وأمن النظام أيضاً، وأنّ سياسة كمّ الأفواه كانت تطال الجميع في البرتغال. من الصعب أن يعبّر أحد عن رأيه بحرية هنا. وهو،

Titter: @ketab_n

تحديداً، كان يقضي نهاره في مكتب بائس من شارع رودريغو دا فونسيكا، برفقة مروحة مصابة بالربو، وتراقبه بوابة المبنى التي يرجّح أنها مخبرة لدى الشرطة. لكنه لم يقل شيئاً من هذا كله، بل قال: سأحاول فعل الأفضل يا سيدة ديلجادو، ولكن ليس سهلاً أن يقوم شخص مثلي بفعل أفضل ما عنده في بلد كهذا، كما تعلمين، أنا لست توماس مان، أنا مدير مغمور لصفحة ثقافية في جريدة مسائية، أقوم بكتابة أحداث مشاهير الكتّاب وأترجم قصصاً فرنسية من القرن التاسع عشر، لا أستطيع فعل أكثر من هذا. أدرك ذلك، قالت السيدة، ولكن قد تستطيع فعل شيء ما، يكفي أن تكون لديك الإرادة. نظر بيريرا إلى النافذة بعيداً وتنهّد. كان القطار يقترب من فيلا فرانكا التي تطلّ على ضفة نهر التاغو الطويلة. كم جميل هذا البرتغال الصغير الذي يعشقه البحرُ والطقس، بيريرا يفكّر، ورغم ذلك تحيط به المصاعب من كل جانب. سيدة ديلجادو، قال لها، أعتقد أننا سنصل إلى لشبونة بعد قليل، نحن في فيلا فرانكا، هذه مدينة للعمّال الشرفاء، ونحن عمّال أيضاً، في هذا البلد الصغير لدينا معارضة صامتة، ربما لأنّ رجلاً كتوماس مان لم يولد بيننا، ولكن هذا ما نستطيع فعله. من الأفضل أن نعود إلى المقصورة لنوظّب الحقائب، أسعدني لقاؤك وقضاء هذا الوقت معك، اسمحي لي أن أقدّم يدي، لكن لا تفسّري الأمر على أنه مساعدة، إنها مجرد حركة نبيلة، والبرتغال بلد المروءة كما تعلمين.

نهض بيريرا ومدّ يده للسيدة ديلجادو، فرحبّت بذلك بابتسامة هنيئة ونهضت بصعوبة لتمرّ من خلف الطاولة الضيقة. دفع بيريرا الحساب وترك البقشيش أيضاً، وخرج من صالة المطعم وهو يسند السيدة ديلجادو إليه. وكان يشعر بالفخر والاكتئاب في نفس الوقت، لكنه لم يكن يعرف السبب، حسبما يدّعي بيريرا.

Titter: @ketab_n

11

يدّعي بيريرا أنه في الثلاثاء التالي، عندما وصل إلى مكتبه، وجد البوابة واقفة في الفناء وبيدها ظرف بريدي عاجل. سّلتمه إياه وقالت: أوصلت تعليماتك إلى ساعي البريد، لكنه لا يستطيع أن يعود لاحقاً فعليه أن يمرّ بالحيّ كلّه، ففضّل أن أستلم الظرف نيابة عنك. أخذ بيريرا الظرف، وهزّ برأسه شاكراً، ونظر إن كان المرسل كتب اسمه عليه. لم يكن الاسم مكتوباً لحسن الحظ، وبقيت شيليستا ساكتة. لكنه عرف أنه من مونتيرو روسي، من حبره الأزرق وطريقة كتابته المستعجلة. دخل إلى المكتب وأشعل المروحة. ثم فتح الرسالة. كانت تقول: "الأستاذ بيريرا المحترم، للأسف إنني أمر بأيام شؤم. أنا بحاجة للتكلم معك، لأمر طارئ، ولكنني أفضّل أن لا أمرّ إلى القسم الثقافي. سأنتظرك الثلاثاء مساء، الساعة الثامنة والنصف، في اوركيديا كافيه، يسرّني أن أتعشى معك وأن أقصّ عليك مشاكلي. أطيب المنى، المخلص مونتيرو روسي".

يدّعي بيريرا أنه كان يريد كتابة مقال صغير لزاوية "أحداث تاريخية" تتعلق بريلكه، الذي مات عام 1926 ومرّ على رحيله اثنا عشر عاماً، وكان يريد أن يترجم قصة لبلزاك أيضاً. لقد اختار قصة "هونورين" التي تتحدث عن الندم، وأراد أن ينشرها على ثلاث أو أربع حلقات. بيريرا يجهل سبب اختياره، لكنه رأى أنّ قصةً موضوعها الندم قد تكون كرسالة في قارورة يرميها في البحر لعلّ أحداً ما

Titter: @ketab_n

يلتقطها. هذا لأنّ ثمة أشياء كثيرة علينا أن نندم عليها، ومن المناسب أن تُنشر قصة عن الندم، وكانت هذه الوسيلة الوحيدة لإيصال الرسالة إلى من قد يفهم إشاراتها. وهكذا حمل القاموس الفرنسي، أطفئ المروحة واتجه نحو البيت.

عندما وصلت سيارة الأجرة إلى الكاتدرائية كان الطقس حارّاً بشكل مريع. فنزع بيريرا ربطة العنق ووضعها في جيبه. وصعد بصعوبة على عتبة الشارع الذي يفضي إلى البيت، فتح باب البناية وجلس إلى إحدى درجات السلّم. أصابه الغثيان والدوار. بحث في جيبه عن دواء القلب الذي ألزمه الطبيب به وابتلع حبّة بلا ماء. نشّف عرقه، وأحسّ بالراحة والانتعاش في تلك الباحة المظلمة ثم دخل إلى منزله. لم تكن الخادمة قد حضّرت له شيئاً، لأنها غادرت إلى سيتوبال، لزيارة أقاربها، وسوف تعود في سبتمبر، كما كانت تفعل في كل مرة. أزعجه الخبر في الحقيقة، لأنه لم يكن يحبّ أن يبقى وحيداً، وحيداً تماماً، دون أن يعتني به أحد. مرّ أمام صورة زوجته وقال لها: سأعود بعد عشر دقائق. ذهب إلى غرفة النوم، ونزع ثيابه وحضّر نفسه ليدخل إلى الحمّام. نصحه الطبيب أن لا يستحمّ بمياه باردة جداً، لكنه كان بحاجة لحمّام بارد، ملأ الحوض كله بمياه باردة ثم غطس فيها. عندما كان تحت الماء تلمّس بطنه، وقال لنفسه: لم تكن حياتك هكذا في السابق يا بيريرا. نشّف جسده ولبس البيجاما. وذهب إلى المدخل، توقّف أمام صورة زوجته وقال لها: هذا المساء سألتقي بمونتيرو روسي، لا أعرف ما الذي يمنعني من عزله عن العمل وإرساله إلى الجحيم، أظن أنّ لديه مشاكل كبيرة ويريد أن يورّطني بها، ما رأيك أنت، بم تنصحينني؟ ألمحت صورة زوجته بابتسامة بعيدة. حسناً، قال بيريرا، سأذهب للقيلولة، سأرى ماذا يريد هذا الشاب بعد ذلك. وذهب ليضطجع قليلاً.

Titter: @ketab_n

يدّعي بيريرا أنه رأى حلماً خلال تلك القيلولة. وكان الحلم جميلاً، من أيام شبابه الماضية. لكنه لا يفضّل أن يتحدث عمّا رأى، إذ ليس من المستحسن أن تُفشى الأحلام. بيريرا يقرّ فقط بأنه كان سعيداً، وأنّ الطقس كان في الشتاء، على شاطئ قريب من كويمبرا، ربما في غرانخا، شمالاً، وكان معه بعض الأشخاص ولا يود الإفصاح عن هويتهم. ما يهمّنا أنه استيقظ بمزاج معتدل، ارتدى قميصاً ذي أكمام قصيرة، ولم يضع ربطة العنق، وأخذ سترة قطنية خفيفة ولم يلبسها، بل حملها على ذراعه. كان المساء حاراً، ولكنه لا يخلو من النسمات العذبة لحسن الحظ. فكّر حينها أن يذهب سيراً على الأقدام حتى اوركيديا كافيه، لكنّ ذلك بدا له ضرباً من الجنون. فنزل حتى تيريرو دو باسو وغمرته هذه النزهة بالسرور. وركب الترام من هناك حتى شارع الكسندر هيركولانو. كانت المقهى شبه خالية، ولم يحضر مونتيرو روسي بعد، ذلك لأنّ بيريرا جاء قبل الموعد في الواقع. جلس إلى طاولة في الداخل قرب المروحة وطلب الليموناضة من النادل وسأله: ما الأخبار يا مانويل؟ فأجابه الأخير: إن كنت حضرتك لا تعرف وأنت تعمل في الصحافة يا أستاذ بيريرا، فمن الذي يعرف؟. لقد كنت في الحمة، أجاب بيريرا، ولم أقرأ الجرائد، ناهيك أنّ الجرائد لا تغني ولا تسمن من جوع، أفضل طريقة لمعرفة الأخبار هي السؤال، ولهذا أسألك يا مانويل. الأمور التي تحدث تفوق غرابتها الوصف يا أستاذ بيريرا، أجاب الخادم ومضى.

في تلك اللحظة دخل مونتيرو روسي. كان يتقدم والخوف بادٍ على وجهه، وينظر بريبة إلى ما حوله. لاحظ بيريرا أنّ الشاب يلبس قميصاً أزرق جميلاً بياقة بيضاء. اشتراه من نقودي، فكر بيريرا لوهلة، لكنه لم يمتلك الوقت ليفكر في الموضوع فمونتيرو روسي ما إن رآه

Titter: @ketab_n

حتى توجّه نحوه. تصافحا. تفضّلْ بالجلوس، قال بيريرا. جلس مونتيرو روسي إلى الطاولة دون أن يقول شيئاً. حسناً، قال بيريرا، ماذا تريد أن تأكل؟، هنا يقدّمون البيض المخفوق مع الأعشاب المنكهة والسلطات البحرية حصراً. أرغب ببيضتين مقليتين مع الأعشاب، قال مونتيرو روسي، اعذرني على سوقيّتي لكنني لم آكل شيئاً منذ البارحة. طلب بيريرا ثلاث بيضات مع الأعشاب وقال: والآن قصّ عليّ مشاكلك، بما أنك استخدمت هذه الكلمة في رسالتك. رفع الشاب غرّته عن ناصيته، فولّدت هذه الحركة لدى بيريرا انطباعاً غريباً، كما يدّعي. حسناً، قال مونتيرو روسي مخفضاً صوته، إنني في مصيبة يا أستاذ بيريرا، هذه هي الحقيقة. وصل النادل مع البيض فغيّر مونتيرو روسي الموضوع. قال: يا إلهي ما هذا الطقس الحار! وتحدّثا عن الطقس بينما كان النادل يقوم بالخدمة، وقال بيريرا إنه كان في الحمة في بوساكو حيث الطقس رائع جداً على الهضاب وفي الحدائق الخضراء. ثم انسحب النادل فسأل بيريرا: حسناً، تابعْ. لا أعرف من أين أبدأ، قال مونتيرو روسي، أنا في مصيبة، هذا هو المهمّ. أخذ بيريرا قطعة من البيض وسأله: هل تتعلق المصيبة بمارتا؟

لماذا سأل بيريرا هذا السؤال؟ هل لأنه فكر حقاً بأنّ مارتا قد تسبّب المتاعب لهذا الشاب؟ أم لأنه وجدها عفوية جداً إلى حدّ السفاهة؟ ربما لأنه تمنّى لو كان كل شيء مختلفاً، وأن يكونوا في فرنسا أو انكلترا حيث بإمكان الفتيات الوقحات والسفيهات أن يعبّرن بحرية عن أفكارهنّ؟ لم يكن لبيريرا أن يجيب عن هذا، وما يهمّنا أنه سأل: هل تتعلق المصيبة بمارتا؟ نعم، أجاب مونتيرو روسي بصوت منخفض، بشكل أو بآخر، ولكنها لا تتحمل الذنب كله، مارتا لديها أفكار ثابتة فعلاً. ما الذي حدث إذن؟ سأل بيريرا. ما حدث أنّ ابن عمي وصل،

Titter: @ketab_n

أجاب مونتيرو روسي. لا يبدو لي الأمر خطيراً، قال بيريرا، كلنا لدينا أبناء عمومة. أجل، قال مونتيرو روسي هامساً، لكنّ ابن عمي آتٍ من إسبانيا، وهو منخرط في إحدى المجموعات المسلحة، يحارب إلى جانب الجمهوريين، وجاء إلى البرتغال ليجنّد المتطوّعين الذين يريدون الانضمام إلى الكتيبة الأممية، وأنا لا أستطيع أن أستقبله في بيتي، ولا أعرف أين أستضيفه، لا أعرف أين أخفيه. بدأ بيريرا يشعر بخيط عرق يسيل على طول ظهره، لكنه حافظ على هدوئه. وما المطلوب إذن؟ سأل بيريرا وهو يتابع طعامه. أود أن أطلب منك، أجاب مونتيرو روسي، يا أستاذ بيريرا، أن تجد له مخبأ آمناً، ولا ضير حتى لو كان مخالفاً للقانون، فأنا بكل الأحوال لا أستطيع أن أخفيه في بيتي، لأنّ الشرطة قد تشكّ بأمري بسبب مارتا، وقد أكون تحت المراقبة. وأنا؟ استغرب بيريرا. أنت، حضرتك، لا يشك أحد بك، قال مونتيرو روسي، ثم إنه سيبقى هنا بضعة أيام، أي ما يكفيه للاتصال بالمقاومة، ثم يعود إلى إسبانيا، ينبغي أن تساعدني يا أستاذ بيريرا، ينبغي أن تجد له مخبأ.

أنهى بيريرا عشاءه، أشار إلى النادل وطلب منه ليموناضة أخرى. إنني مستغرب من طيشك، قال، لا أعرف إن كنت تعي ما تطلبه مني، ثم ماذا عليّ أن أجد له؟ غرفة للإيجار، قال مونتيرو روسي، أو سرير في نزل، أو مكان ما لا يطلب منه وثائق شخصية، ولا شك أنك، بمعارفك الواسعة، لديك فكرة عن أماكن من هذا النوع.

معارفي الواسعة!، فكر بيريرا في سرّه، ولكني لا أعرف أحداً من أولئك الذين أعرفهم، أعرف الأب أنطونيو غير أنّي لا أستطيع أن أحمّله هكذا مصيبة، أعرف سيلفا، صديقي في كويمبرا ولا يمكن أن أعتمد عليه بأمر كهذا، والبوابة في شارع رودريغو دا فونسيكا وهي ليست

Titter: @ketab_n

سوى مخبرة للشرطة. وفجأة خطر في باله نـــزل صغير، في غراسا، فوق القلعة، حيث كان الأزواج غير الشرعيين يمارسون ما يمارسون دون أن يطلب منهم أحد أي إثبات أو وثيقة. بيريرا يعرف النـــزل جيـــداً لأنّ صديقه سيلفا ذات مرة طلب منه أن يحجز له غرفة كي يقضي ليلة مع سيدة من لشبونة لا تستطيع مواجهة الفضائح. فقال: سأهتم بالموضوع صباح الغد، ولكن لا تأت بابن عمك أو ترسله إلى المكتـــب، ســـبق وأخبرتك بأمر البوابة، لذا تعال به إلى بيتي غداً حوالي الحاديـــة عشـــر صباحاً، سأعطيك العنوان ولكن لا تتصلْ هاتفياً أرجوك، وحـــاولْ أن تكون موجوداً أنت أيضاً، فهكذا أفضل.

لماذا عرض بيريرا هذه الخدمة؟ ربما لأنه كان يأسف على وضـــع مونتيرو روسي. أو ربما لأنه تحدّث بطريقة مخيّبة مع صـــديقه ســـيلفا عندما كان في الحمة. بل ربما لأنه وعد السيدة ديلجـــادو، في قطـــار العودة، أن يفعل شيئاً مهما كان غير ذي أهمية. يدّعي بيريـــرا أنـــه لا يستطيع الإجابة عن ذلك. لقد أدرك أنه في ورطة وعليـــه أن ينـــاقش تداعياتها مع شخص ما، لكن هذا الشخص لم يكن قريباً منه حينـــها، فقرر أن يعود إلى البيت ليتحدث بالموضوع مع صورة زوجته. بيريـــرا يدّعي أنه فعل ذلك حقاً.

Titter: @ketab_n

12

يدّعي بيريرا أنّ سمع طرقاً على الباب في تمام الحادية عشر صباحاً. كان قد تناول فطوره لأنه استيقظ باكراً، وقد حضّر كمية من شراب الليموناضة وأضاف عليها مكعبات الثلج ووضعها في إبريق فوق المائدة. دخل مونتيرو روسي متوجساً وهمس: صباح الخير. فأغلق بيريرا الباب وكان مضطرباً قليلاً وسأله عن ابن عمه. إنه ورائي هنا، أجاب مونتيرو روسي، لكنه لا يريد الدخول مباشرة، أرسلني أولاً لأستطلع الوضع. ماذا؟ سأل بيريرا باستياء، هل تلعبان لعبة الحرس واللصوص أم تظنّان أن الشرطة بانتظاركما؟ أوه لا ليس كذلك يا أستاذ بيريرا، اعتذر مونتيرو روسي، كل ما في الأمر أنّ ابن عمي لديه وسواس الشك، ثم إنّ وضعه في غاية الصعوبة كما تعلم، يتوخى الحذر دائماً وقد جاء لينجز مهمة بمنتهى الحساسية، بحوزته جواز سفر أرجنتيني ولا يعرف أين يلوذ بجلده. قلت لي ذلك البارحة، أجاب بيريرا، والآن ناده من فضلك، كفاكما لعباً. فتح مونتيرو روسي الباب وقال لابن عمّه: تعال يا برونو، قال باللغة الإيطالية، كل شيء على ما يرام.

دخل شاب هزيل وقصير القامة، شعره مسرّح للخلف، له شارب أشقر ويلبس سترة زرقاء. أستاذ بيريرا، قال مونتيرو روسي، أقدّم لك ابن عمي برونو روسي، ولكنه يدعى برونو لوجونيس في جواز السفر، ومن الأفضل أن تناديه دوماً بالشهرة الأرجنتينية. وبأي لغة علينا أن نتحدث؟ سأل بيريرا، هل يتكلم البرتغالية؟ لا، قال مونتيرو روسي، لكنه يتقن الإسبانية.

Titter: @ketab_n

دعاهما بيريرا للجلوس في الصالة وصبّ لهما من الليموناضة. لم ينبس السيد برونو روسي ببنت شفة، وظلّ ينظر حوله بارتياب. سمع صفيراً لسيارة إسعاف بعيدة، فارتبك وذهب إلى النافذة. قل له أن يبقى هادئاً، قال بيريرا لمونتيرو روسي، نحن لسنا في إسبانيا، لا حرب أهلية هنا. عاد برونو ليجلس وقال: " perdone la molestia, pero estoy aquì por la causa republicana"[1]. فقال بيريرا بالبرتغالية: اسمع يا سيد لوجونيس، سأتكلم ببطء كي تفهمني جيداً، أنا لست معنياً لا بالقضية الجمهورية ولا بالقضية الملكية، أنا مدير صفحة ثقافية لجريدة مسائية وهذه الأشياء لا تشكّل شيئاً من اهتماماتي، سأجد لك مكاناً مناسباً، ولا أستطيع فعل أكثر من هذا، وحذار أن تبحث عني فيما بعد، لأنني لا أريد أن أعرف شيئاً عنك ولا عن قضيتك. التفت برونو إلى ابن عمه وقال له بالإيطالية: هذا الرجل ليس كما وصفته لي، كنت أتوقع أن ألتقي برفيق. ففهم بيريرا وأجاب: أنا لست رفيقاً لأحد، أعيش لوحدي وهذا يطيب لي، رفيقي الوحيد هي ذاتي، هل فهمتني يا سيد لوجونيس، بما أنّ هذا اسمك على جواز السفر. أجل أجل، قال مونتيرو روسي متلعثماً، لكننا بحاجة لمساعدتك وتفهّمك، نحن بحاجة للمال. اشرح أكثر، قال بيريرا. حسناً، ردّ مونتيرو روسي، أخشى أن يطلب النزل أن ندفع سلفاً ونحن ليس في جيبنا ولا قرش واحد حتى اللحظة، أما فيما بعد سأهتم أنا بالأمر، بل مارتا بالأحرى، هل بوسعي أن أستدين منك المبلغ؟

يدّعي بيريرا أنه نهض حينها، واستأذنهما: اصبرا، أنا بحاجة للحظة تأمّل، سأعود بعد دقائق. تركهما في الصالة وذهب إلى المدخل. توقّف أمام صورة زوجته وقال لها: اصغ إليّ، أنا لست قلقاً من ناحية

---

1 الجملة واردة باللغة الإسبانية، وتعني: عذراً على الإزعاج، ولكنني هنا من أجل القضية الجمهورية. المترجم.

Titter: @ketab_n

لوجونيس، لكنني مرتاب من مارتا، لأنني أرى أنها المسئولة الوحيدة عمّا يحدث الآن، مارتا حبيبة مونتيرو روسي، تلك الفتاة ذات الشعر الكستنائي، أعتقد أنني حدثتك عنها مسبقاً، حسناً، إنها هي من يعرّض مونتيرو روسي للمصائب، أنا متأكد من ذلك، وهو يتورط في هذه المصائب لأنه يعشقها، من واجبي أن أحميه أليس كذلك؟ ارتسمت ابتسامة بعيدة على صورة الزوجة فحسب بيريرا أنه أدرك قصدها. وعاد إلى الصالة وسأل مونتيرو روسي: لماذا مارتا؟ ما شأن مارتا؟ حسناً، تلعثم مونتيرو روسي وتضرّجت وجنتاه قليلاً، لأنّ مارتا لديها موارد كثيرة، هذا كل ما في الأمر. اسمعني جيداً يا عزيزي، قال بيريرا، أنا أرى أنك تتعرض لهذه المخاطر لأجلها لأنك تحبها وهي فتاة جميلة ولعوب، ولكنني لست بأبيك ولا أريد منك أن تفهم كلامي كتصرّف أبوي أو تدخّل في شؤونك الخاصة، سأقول لك شيئاً واحداً: خذ حذرك. بالطبع، قال مونتيرو روسي، أنا أتوخّى الحذر، ولكن ماذا قررت بخصوص النقود؟ سنحلّ هذه المشكلة، أجاب بيريرا، ولكن لماذا أنا بالتحديد من عليه أن يدفع السلف؟ يا أستاذ بيريرا، قال مونتيرو روسي وهو يخرج من جيبه ورقة أعطاها لبيريرا، لقد كتبت مقالاً وسأكتب مقالين آخرين في الأسبوع القادم، أرغمت نفسي على الكتابة عن دانونزيو، واستخدمت منطق القلب والعقل معاً كما نصحتني، وأعدك أن أكتب عن أديبين كاثوليكيين وفقاً لما تشاء حضرتك.

يدّعي بيريرا أنه اغتاظ قليلاً فقال: أنا لا أغصبك على الكتابة عن أدباء كاثوليكيين بالقوة، كنت أنت من أنجز أطروحة عن الموت فعليك أن تفكر بالكتّاب الذي اهتموا بهذا الموضوع، أي الذين اهتموا بالروح، لكنك تأتيني بمقال عن شاعر اهتمّ بالماديات مثل دانونزيو، قد يكون مهماً غير أنه أسرف حياته في الترهات، هل فهمت ما أقصد؟ في جريدتنا

Titter: @ketab_n

لا تهتم بالأشخاص التافهين، أو على الأقل لا يهمونني أنا شخصياً. ممتـــاز، أجاب مونتيرو روسي، وصلت الرسالة. ممتاز جداً، أضاف بيريـــرا، والآن فلنذهب إلى النـــزل، وجدت واحداً في غراسا حيث لا يعقّدون المســألة، سأدفع سلفاً إذا لزم الأمر، وعليك أن تكتب ثلاث مرثيات علـــى الأقـــل يا عزيزي، هذا راتبك نصف الشهري. فقال مونتيرو روسي: لقد كتبـــت عن دانونـــزيو لأنني اشتريت جريدة لشبونيا السبت الماضي، ورأيت زاوية في الصفحة الثقافية بعنوان "أحداث تاريخية" و لم تكن ممضية مـــن أحـــد وتوقعت أنك أنت من كتبها، إن احتجت فيها عوناً فسأســاعدك علـــى الرحب والسعة، إذ استهوتني فكرة الزاوية وهنالك الكثير من الأدباء الذين بوسعي أن أكتب عنهم، وطالما أنّ الزاوية بلا إمضاء فما من خـــوف أن تعرّضك مقالاتي للمشاكل. يدّعي بيريرا أنه استغرب وسأل: وهل أنـــت عندك مشاكل؟ ليست مشاكل كثيرة، كما ترى، أجاب مونتيرو روسي، وفكّرت باسم مستعار، روكسي، ما رأيك؟ يبدو لي الاسم مختاراً بعنايـــة، أجاب بيريرا. أمسك بإبريق الليموناضة ووضعه في الثلاجة، ثم لبس السترة وقال: حسناً، فلنذهب.

خرجوا. أمام ساحة المبنى كان هنالك عسكري نائم مستلق على مقعد. أقرّ بيريرا أنه من الصعب الوصول إلى النـــزل علـــى الأقـــدام، فانتظروا سيارة أجرة. ويدّعي بيريرا أنّ الهواء توقّـــف عـــن اللعـــب ومازالت الشمس حارقة. ثم أوقف سيارة أجرة كانت تسير بـــبطء. لم يتكلموا بشيء خلال الطريق، حتى نـــزلوا مقابل صليب من قرميـــد يطلّ على ناقوس صغير. دخل بيريرا إلى النـــزل ونصح مونتيرو روسي بانتظاره خارجاً، رافقه برونو روســـي فقـــط. تقـــدّما إلى موظـــف الاستقبال، كان طاعناً في السن يتثاءب خلف مكتبه. مرحباً، لديّ هنا صديق أرجنتيني، قال بيريرا، إنه السيد برونو لوجونيس، وهذا جـــواز

Titter: @ketab_n

سفره، لكنه يفضّل عدم تسجيل اسمه، لقد جاء إلى هنا لأسباب عاطفية. نزع العجوز نظارتيه السميكتين وتصفّح السجل. اتصل بنا شخص للحجز في الصباح، هل كنت أنت يا سيدي؟ نعم أنا، أكد بيريرا. لدينا غرفة زوجية بدون حمّام، قال العجوز، لا أعرف إن كانت تناسب السيد لوجونيس. تناسبه جداً، قال بيريرا. الدفع سلفاً كما تعلم، قال العجوز. فأخرج بيريرا محفظته وأعطاه النقود الكافية. سأدفع لك ثلاثة أيام سلفاً، قال للموظف، نهاراً سعيداً وشكراً. التفت إلى برونو وودّعه مفضّلاً ألا يصافحه، فالمصافحة حميمية قصوى برأي بيريرا. إقامة موفقة، وداعاً. قال وخرج.

كان مونتيرو روسي بانتظاره في الخارج على حافة إحدى النوافير. تعال غداً إلى المكتب، قال بيريرا، سأقرأ مقالك اليوم، ولدينا ما نتحدث به. فردّ مونتيرو روسي: ولكنني في الحقيقة... فقاطعه بيريرا: ولكنك في الحقيقة ماذا؟ تابع الشاب: كما ترى، أنا أفكر أن نلتقي بمكان آمن، في بيتك مثلاً. موافق، قال بيريرا، ولكن ليس في بيتي، يكفي بيتي ما حدث فيه اليوم، نلتقي غداً الساعة الواحدة في اوركيديا كافيه، ما رأيك؟ موافق، أجاب مونتيرو روسي. تصافحا وتودعا. رأى بيريرا أنّ درب العودة كانت منحدرة ففكر أن يذهب على الأقدام حتى المنزل. كان النهار بديعاً، ولحسن الحظ عادت نسائم المحيط تداعب المدينة. لكنه لم يشعر أنه قادر على الاستمتاع بذلك النهار، أحس بالضيق ورغب أن يحادث أحداً، الأب أنطونيو مثلاً، لكن الأخير يقضي النهار في رعاية مرضاه. قرر أنّ بوسعه الذهاب ليدردش مع صورة زوجته. وهكذا نزع السترة وسار ببطء نحو المنزل، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

13

يدّعي بيريرا أنه قضى الليل في ترجمة "هونورين" لبلزاك وتنقيحها. كانت القصة صعبة على الترجمة لكنها بدت سلسة بما يكفي، حسب رأيه. نام ثلاث ساعات، من السادسة حتى التاسعة صباحاً، ثم استيقظ، استحمّ بماء بارد، شرب القهوة وذهب إلى المكتب. صادف البوابة عند الدرج، وألقت عليه التحية بهزة من رأسها وبوجه مكشّر. همس بيريرا بصوت منخفض جداً: صباح الخير. دخل إلى المكتب، جلس خلف المنضدة واتصل بالطبيب كوستا، طبيبه. آلو دكتور، صباح الخير، أنا بيريرا. ردّ الطبيب: صباح النور كيف الحال؟. بالأمس أصابني الغثيان، أجاب بيريرا، لا أقوى على صعود الدرج وأظن أنني سمنت أيضاً، وعندما أتنزه يخفق قلبي بقوة. اسمع يا أستاذ بيريرا، قال الطبيب، أنا أذهب مرة في الأسبوع إلى مصحّة العلاج البحري في باريدي، لم لا تذهب إليها بضعة أيام؟. فسأل بيريرا: هل وضعي خطير؟ كلا، أجاب الطبيب، ولكن المصحة تقدّم عناية طبية ممتازة، إضافة إلى طبابة القلب والمفاصل بأساليب طبيعية، وفيها حمّامات الطحالب، وقسم للتدليك وعلاج لتخفيف الوزن، وهنالك أطباء ماهرون درسوا في فرنسا، وحالتك تقتضي أن تستريح بعض الوقت وتحظى بالعناية يا سيدي، والمصحّة دواؤك، بوسعي أن أحجز لك غرفة للغد إن أحببت، غرفة مريحة ومرتبة وشرفتها تطلّ على البحر، ستعيش حياة صحية خلاصة القول، وقد أجيء لألتقي بك مرة على الأقل إن نسّقنا معاً، لقد عاينت

Titter: @ketab_n

فيها بعض المصابين بالسل، ولكن لا خوف منهم فهم يعالجون في أماكن لا تنقل العدوى. أوه، إن كان على هذا فأنا لا أخاف من مرضى السل، يدّعي بيريرا أنه قال ذلك، قضيت عمري مع زوجتي التي كانت مصابة بالسل و لم تعدِني بالمرض أبداً، ولكن المشكلة ليست هنا، إنما أنني أوكلت إدارة الصفحة الثقافية التي تصدر السبت في جريدة لشبونيا، ولا أستطيع أن أترك المكتب طويلاً. فقال الطبيب: إنّ باريدي لا تبعد عن لشبونة أكثر من عشرة كيلومترات، وفي المصحة يوجد من يهتم بالنقل إلى العاصمة إن أردت كتابة المقالات في باريدي وإرسالها إلى لشبونة، على كل حال الصفحة الثقافية تصدر يوماً واحداً في الأسبوع، وإن استطعت تحضير مقالين أو ثلاثة فالصفحة جاهزة لسبتين على الأقل، ثم دعني أقول إنّ الصحة أهم من الثقافة. حسناً، قال بيريرا، ولكن أسبوعين مدة طويلة، ألا يكفي أسبوع واحد من الراحة؟. أفضل من لا شيء، أنهى الطبيب. يدّعي بيريرا أنه استسلم لقبول قضاء أسبوع في المصحة البحرية في باريدي، وصرح للطبيب كوستا أن يحجز له غرفة ليوم الغد، لكنه أصر على أن يُخطر رئيس التحرير بالأمر من أجل المهنية. أغلق السماعة واتصل بالمطبعة، وقال لهم إن حكاية بلزاك للنشر على حلقتين أو ثلاث، وعليه ستكون الصفحة الثقافية جاهزة لعدة أسابيع. وزاوية الأحداث؟ سأله مدير المطبعة. لا توجد الآن، قال بيريرا، لا تأتوا لأخذ المواد من المكتب، لأنني لن أكون بعد الظهر، سأتركها لكم في ظرف مغلق في اوركيديا كافيه، قرب الملحمة اليهودية. ثم اتصل بالسنترال وطلب الاتصال بفندق الحمة الكبريتية في بوساكو. قال موظف الفندق: إنّ رئيس التحرير في الحديقة يستجمّ تحت الشمس، لا أعرف إن كان عليّ إزعاجه. لا بأس، أزعجْه، قال بيريرا، قل له إنّ القسم الثقافي يتصل به. وصل رئيس التحرير إلى

Titter: @ketab_n

الهاتف وقال: آلو. سيدي رئيس التحرير، قال بيريرا، لقد ترجمت وقدّمت قصة لبلزاك ستكون على حلقات لثلاثة أعداد، أتصل بك لأستأذنك بالذهاب إلى المصحة البحرية في باريدي، فقلبي ليس على ما يرام والطبيب نصحني بالانتقال إلى المصحة حالاً. والجريدة؟ سأل رئيس التحرير. كما قلت لك، لقد غطيّت الصفحة الثقافية لثلاثة أعداد على الأقل، يدعي بيريرا أنه قال ذلك، ثم إنني على بعد خطوتين من لشبونة، وعموماً سأترك لكم رقم المصحة، وإن حدث أي طارئ سأرجع إلى المكتب على الفور. ومساعدك؟ سأل رئيس التحرير، ألا تستطيع أن تترك المساعد في المكتب نيابة عنك؟ لا أفضّل ذلك، أجاب بيريرا، كتب مرثيات قليلة إلى الآن ولست متأكداً من إمكانية نشرها، إذا توفيّ كاتب مهم سأتولى الموضوع بنفسي. حسناً، قال رئيس التحرير، أعطيك بكل سرور إجازة لأسبوع للعلاج يا أستاذ بيريرا، وعلى كل حال في الجريدة يوجد مدير التحرير الذي بوسعه أن يعالج أي مشكلة إن لزم الأمر. ودّعه بيريرا وطلب منه أن ينقل تحياته للسيدة اللطيفة التي عرّفه عليها. أغلق السماعة ونظر إلى الساعة. كانت ساعة الذهاب إلى اوركيديا كافيه تقريباً، ولكن قبل ذلك قرر أن يقرأ مقال دانونزيو إذ لم يكن لديه وقت ليقرأه في الأمس، في أسوأ الأحوال بوسعه أن يحوّله إلى شهادة طالما أنه احتفظ به. بدأ يقرأ: "منذ خمسة أشهر بالضبط، في تمام الثامنة مساء من أول مايو 1938، مات جابريلي دانونزيو. لم تكن جريدتنا قد أنشأت الصفحة الثقافية حينها، واليوم يبدو لنا أن لابدّ من الحديث عنه. هل كان دانونزيو - اسمه الحقيقي "رابانيتا" للدقة - شاعراً كبيراً؟ من الصعب أن نقرّ بذلك لأنّ أعماله ما تزال طازجة بالنسبة لنا نحن معاصريه. إنما قد يكون من الأفضل الحديث عن جانبه الإنساني الذي اختلط بجانبه الفني. قبل كل شيء،

Titter: @ketab_n

كان شاعراً ملهماً. أحبّ الحياة المترفة والفاخرة وأحبّ الفصاحة والتقدم. كان من كبار المدرسة الما قبل الرمزية، ناهض القواعد الأخلاقية، وكان عاشقاً للإنحلال والإباحية. استعار من الفيلسوف الألماني نيتشه أسطورة الإنسان المتفوق، لكنه حوّلها إلى نظرية قوة الإرادة في المثاليات الجمالية التي تكوّن المشكال الملون لحياة لا تتكرّر. كان موالياً للتدخل في الحرب العظمى، معادياً للسلام بين الشعوب. عاصر أحداثاً حربية وتحريضية مثل تحليق الطيران الحربي فوق فيينا عام 1918 عندما رمت منشورات إيطالية فوق المدينة. ونظّم بعد الحرب احتلال مدينة فيومي، التي طردته منها القوات الإيطالية فيما بعد. انسحب إلى غاردوني حيث بنى فيلا أسماها "النصر الإيطالي"، وعاش فيها حياة منحطة وماجنة، توصف بالحب الجنسي والمغامرات الإيروتيكية. لقيت الفاشية والمنشآت الحربية إعجابه، في حين لقّبه فرناندو بيسوا بالبوق، وربما كان محقّاً. فالصدى الذي يأتينا من جهته ليس لصوت كمنجة عذب، بل لصوت فظّ وغليظ كآلة نفخية، كبوق صارخ ومستبدّ. لم تكن حياة هذا الشاعر الأرعن بالنموذجية، ولطالما التفّ حوله الغموض والشكوك. ونحن إذ نذكره، فلأننا ندعو إلى اجتنابه وعدم الاقتياد به. بقلم روكسي". قال بيريرا لنفسه: غير قابل للنشر إطلاقاً، وغير صالح لأي استعمال. أدخل الرسالة بمجلّد المرثيات. لا يعرف لماذا فعل ذلك، كان يستطيع أن يرميها في السلة، لكنه احتفظ بها. ولكي يضع حداً للاستياء الذي لحق به، قرر مغادرة المكتب والذهاب إلى اوركيديا كافيه.

يدّعي بيريرا أنّ أول ما رآه كان شعر مارتا الكستنائي عندما دخل إلى المقهى. وكانت تجلس إلى طاولة منزوية، قرب المروحة، وتعطي ظهرها للباب، بالفستان ذاته التي كانت ترتديه في حفلة براسا

Titter: @ketab_n

دا اليغريا. ويدّعي بيريرا أنه يؤكد جمال مارتا وكتفيها المتناسقين الرائعين. اقترب منها وجلس قبالتها. أستاذ بيريرا، قالت مارتا بعفوية، أتيت نيابة عن مونتيرو روسي، إنه لا يستطيع المجيء اليوم.

سألها بيريرا إن كانت تود أن تشرب شيئاً، فأجابت مارتا أنها ستشرب نبيذ البورتو بكل سرور. فأشار بيريرا إلى النادل وطلب منه كأسين من ذلك النبيذ، رغم أنه لا يجدر به أن يشرب الكحول، لكنه كان سيذهب للمصحة البحرية في الغد ليقوم بحمية كاملة تستغرق أسبوعاً. وضع النادل النبيذ ومضى، فسألها بيريرا: كيف الحال؟ فأجابته مارتا: لا بأس، أعتقد أنّ هذا الظرف صعب على الجميع، مونتيرو روسي سافر إلى آلينتيخو، وسيبقى هناك حتى إشعار آخر، من الأفضل أن يقضي بضعة أيام بعيداً عن لشبونة. وابن عمه؟ سأل بيريرا بفضول، فنظرت إليه مارتا وابتسمت. أعرف أنّ حضرتك وقفت إلى جانبهما، قالت، لقد كنت رائعاً حقاً يا أستاذ بيريرا، لابدّ أن تصبح واحداً منا. يدّعي بيريرا أنه شعر بقليل من الغضب، فنزع السترة. اسمعي يا آنسة، أجابها، أنا لست واحداً منكم ولا منهم، أفضّل أن أفعل ما أريد، وفي المجمل لا أعرف من أنتم ولا أريد أن أعرف، أنا صحفي وأهتم بالثقافة، لقد أنهيت ترجمة قصة لبلزاك للتو، وأفضّل أن لا أسمع شيئاً عنكم وعن قصصكم، لست صحفياً إخبارياً. شربت مارتا قليلاً من النبيذ وقالت: ونحن لا نقوم بتغطية الأخبار يا أستاذ بيريرا، وهذا ما أود أن تفهمه، نحن نعيش التاريخ. شرب بدوره من كأسه وأجاب: اسمعي يا آنسة، التاريخ كلمة فضفاضة جداً، أنا أيضاً قرأت فيكو وهيغل في زمن سابق، التاريخ حيوان ليس من السهل ترويضه. ولكن ربما لم تقرأ ماركس، اعترضت مارتا. لا لم أقرأه، قال لها، ولا يهمني أساساً، لقد مللت من المدارس الهيغلية، ثم دعيني أكرر على مسامعك

Titter: @ketab_n

ما قلته قبل قليل، أنا أفكر بنفسي فقط وبالثقافة، هذا عالمي. هل أنت من أتباع الفردانية والفوضوية؟ سألت مارتا، هذا ما أود معرفته. ماذا تقصدين بهذا؟ سأل بيريرا. لا تقل لي إنك لا تعرف ماذا تعني الفردانية والفوضوية، قالت مارتا، إسبانيا مليئة بهؤلاء، هذا على الأقل ما أفكر به. اسمعي يا مارتا، قال بيريرا، أنا لم آت إلى هنا لأتحدث بالسياسة، كما قلت لك مسبقاً السياسة لا تهمني لأنني أعمل في حقل الثقافة من حيث المبدأ، كان عندي موعد مع مونتيرو روسي وأنت تأتين لتقولي إنه في آلينتيخو، ماذا ذهب ليفعل هناك؟

نظرت مارتا حولها كأنها تبحث عن النادل. ألا نأكل شيئاً ما؟ سألت، عندي موعد حوالي الساعة الثالثة. أشار بيريرا إلى مانويل، وطلبا البيض المخفوق مع الأعشاب المنكهة، ثم كرر بيريرا: ماذا يفعل في آلينتيخو؟ ذهب ليرافق ابن عمه، أجابت مارتا، برونو جاءته أوامر في الدقيقة الأخيرة بأن يتجه إلى آلينتيخو بالتحديد لأن الأهالي هناك يريدون التطوع للقتال في إسبانيا، ثمة تقليد ديمقراطي عريق في آلينتيخو، ويوجد الكثير من الفوضويين الفردانيين، مثل حضرتك يا أستاذ بيريرا، ينقصهم العمل، في النهاية كان على مونتيرو روسي أن يرافق ابن عمه، كي يجنّدوا الرجال هناك. جيد، أجاب بيريرا، هنّأيه بتجنيد موفّق إذن. جاء النادل بالوجبة وبدأا يأكلان. ربط بيريرا المنديل على عنقه، وأخذ قطعة من البيض وقال: اسمعي يا مارتا، أنا سأذهب غداً لأتعالج في باريدي، لدي مشاكل صحية، قولي لمونتيرو روسي إنّ مقاله عن دانونزيو غير صالح للاستعمال نهائياً، بكل الأحوال سأترك لك رقم المصحة حيث سأظلّ أسبوعاً كاملاً، والأفضل أن تتصلوا بي خلال ساعات الطعام، والآن قولي لي أين مونتيرو روسي. أخفضت مارتا صوتها وقالت: هذا المساء سيكون في بورتاليغري، عند

Titter: @ketab_n

أصدقائه، ويستحسن أن لا أعطيك العنوان، لأنّه عنوان مؤقت، سينام ليلة هنا وليلة هناك، وعليه أن يتحرك قليلاً صوب آلينتيخو، سيعاود هو الاتصال بك. موافق، قال بيريرا وهو يمرر لها بطاقة صغيرة، هذا رقم هاتف المصحة في باريدي. حسناً، قالت، والآن عليّ أن أذهب يا أستاذ بيريرا، عندي موعد في الطرف الآخر من المدينة.

نهض بيريرا وصافحها، ووضعت مارتا القبعة على رأسها وانطلقت. ظلّ بيريرا ينظر إليها وهي تخرج، مسحوراً بانسجام كتفيها وقامتها تحت أشعة الشمس. فشعر بالراحة والسعادة تقريباً، لكنه لا يعرف لماذا. نادى مانويل، النادل، فجاءه على الحال وسأله إن كان يرغب بشراب مهضّم. كان يشعر بالظمأ، فالظهيرة حارّة جداً. فكّر بيريرا قليلاً ثم قال إنه يريد الليموناضة فقط، وطلبها باردة جداً بل مثلّجة، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

14

يدّعي بيريرا أنه استيقظ باكراً في صباح اليوم التالي. شرب قهوته، حضّر حقيبة صغيرة ووضع فيها "حكايات الاثنين" لألفونس دوديه، فقد يبقى بضعة أيام أخر، ويترجم بعضها، مرجّحاً أنّ حكايات دوديه ستُنشر حتماً في جريدة لشبونيا.

ذهب إلى المدخل، توقّف عند صورة زوجته وقال لها: قابلت مارتا مساء البارحة، عشيقة مونتيرو روسي، لديّ انطباع بأنّ هؤلاء الفتْية سوف يزجّون أنفسهم في مخاطر كبرى، بل لقد زجّوا أنفسهم فيها وقضي الأمر، بكل الأحوال إنه شيء لا يخصّني، أنا بحاجة لأسبوع من العلاج البحري، هكذا نصحني الطبيب كوستا، ثم إنّ لشبونة حارة جداً وقد ترجمت هونورين لبلزاك، سأنطلق هذا الصباح في القطار إلى كايس دي سودريه، وسآخذك معي لو سمحتِ. أخذ الصورة ووضعها في الحقيبة، وجعلها فوق الثياب، لأنّ زوجته كانت تحتاج دوماً للهواء في حياتها، فظنّ أنّ الصورة أيضاً بحاجة لاستنشاق جيد. ثم نزل حتى ساحة الكاتدرائية، انتظر سيارة أجرة وانطلق بها إلى المحطة. ولّما وصل إلى ساحة كايس دي سودريه، فكر أن يتناول شيئاً في البار البريطاني. كان يعرف أنّ ذلك البار يرتاده الأدباء وتمنّى أن يلتقي بأحد منهم. دخل إلى البار واختار طاولة منزوية. وكان على مقربة منه فعلاً الكاتب اكيلينو ريبيرو، يتناول غداءه مع برناردو ماركيز، الرسام الطليعي الذي قام برسم لوحات لأرقى المجلات الحداثية في البرتغال.

Titter: @ketab_n

قال بيريرا لهما صباح الخير فردّ الفنانان التحية بهزّ رأسيهما. وفكّر بيريرا كم كان جميلاً لو جلس معهما، وأن يقول لهما إنّ البارحة قرأ مقالاً سلبياً جداً عن دانونزيو، ويسألهما عن رأيهما في ذلك. لكنهما كانا منشغلين بنقاش محتدم و لم يمتلك بيريرا الشجاعة لإزعاجهما. فهمَ أنّ برناردو ماركيز يرغب باعتزال الرسم، والأديب ينوي الهجرة. ويدّعي بيريرا أنّ هذا ما ولّد في داخله شعوراً بالخذلان، لأنه لم يكن يتوقع أنّ كاتباً بحجم ريبيرو كان يريد أن يهاجر من البلاد. وسمع بعض حديثهما، بينما شرب الليموناضة واستمتع بمذاق حلزون البحر. كان ريبيرو يقول إنّ باريس هو المكان الوحيد القابل للحياة والعمل، وماركيز يوافق قائلاً: اقترحوا عليّ عدة مشاريع هنا، لكنني لم أعد أرغب بالرسم، هذا بلد فظيع، من الأفضل ألا أتعاون مع أحد. أنهى بيريرا مشروبه ووجبته وهض، وتوقّف أمام طاولة الفنانين. سيّداي، قال، أتمنى لكما نهاراً سعيداً، اسمحا لي أن أقدّم نفسي، أنا الأستاذ بيريرا، من الصفحة الثقافية في جريدة لشبونيا، كل البرتغال فخورة بفنانين مثلكما، ونحن بحاجة لكما.

ثم خرج تحت ضوء الشمس المبهر في العصر واتجه إلى القطار. حجز بطاقة إلى باريدي وسأل كم تطول الرحلة. أجاب الموظف أنّ المدة قصيرة فشعر بيريرا بالارتياح. وكان القطار على خط ايستوريل، والركّاب مسافرين في رحلة ترفيهية بشكل عام. جلس بيريرا إلى الطرف الأيسر من المقصورة لأنه رغب أن يرى البحر. كان القطار شبه خال بسبب التوقيت، فاختار بيريرا كرسياً على هواه، أسدل الستار قليلاً كي لا تضرب شمس العصر عينيه، وأخذ يشاهد البحر. وراح يفكر بحياته، لكنه لا يرغب بالحديث عن هذا. إذ يدّعي أنّه يفضّل الحديث عن هدوء البحر وبعض الشباب الذين يسبحون على

Titter: @ketab_n

الشاطئ. منذ متى لم أسبح في البحر، قال بيريرا لنفسه، منذ زمن بعيد جداً، كأنّه قرن أو أكثر. راودته ذكرياته في كويمبرا، عندما كان يذهب إلى الشاطئ بالقرب من اوبورتو، في غرانخا أو ايسبينيو مثلاً، حيث كان يوجد كازينو ونادي. كانت مياه البحر باردة في تلك السواحل الشمالية، لكنه كان قادراً على السباحة لصباحات كاملة، بينما زملاؤه بالجامعة كانوا يشعرون بلسعة البرد، وينتظرونه عند الشاطئ، ثم يلبسون ثياباً أنيقة ويذهبون إلى النادي للعب البلياردو. وكان الناس يحبونهم، وصاحب النادي يستقبلهم بصدر رحب: أهلاً وسهلاً بطلاب كويمبرا! ويعطيهم أفضل طاولة بلياردو.

انفتحت أسارير بيريرا عندما مرّ بسانتو امارو. إذ كان الساحل جميلاً ومقوساً وفي الأفق تطفو الزوارق الشراعية مخططة بالأبيض والأزرق. توقّف القطار وفكر بيريرا بالنزول والذهاب ليسبح قليلاً، فكان بوسعه أن يأخذ القطار التالي. لم يتمالك نفسه، ولا يعرف كيف يصف ذلك الدافع، ربما لأنه تذكّر أيامه في كويمبرا والسباحة على شواطئ غرانخا. نزل بحقيبته الصغيرة وعبر الممر الذي يؤدي إلى الساحل. وعندما وصل إلى الرمل نزع حذاءه وجواربه ومشى حافٍ، ممسكاً الحقيبة بيد والحذاء بالأخرى. رأى المنقذ يراقب السابحين وهو مستلق على مقعد، وكان جلده قد تلوّن بفعل الشمس والبحر. اقترب بيريرا منه وطلب لباساً للسباحة، فنظر إليه المنقذ من رأسه حتى أخمص قدميه متحفظاً وتمتم: لا أعرف إن كان لدينا لباساً على قياسك، عموماً سأعطيك مفاتيح المخزن، الكابينة الأكبر رقم واحد. ثم سأله بلهجة بدت ساخرة لبيريرا: هل تحتاج لطوق نجاة أيضاً؟ لا تقلق فأنا أعرف السباحة جيداً، أجاب بيريرا، وربما أفضل منك حتى. أخذ مفتاح المخزن والمشلح ومضى. وكان في المخزن يوجد الكثير من كل

Titter: @ketab_n

شيء: قوارب صغيرة، أطواق نجاة منفوخة، شبكات صيد مغطاة بالطعم، وألبسة سباحة. قلّب بين الألبسة علّه يعثر على لباس من الموضة القديمة، من تلك التي تستر الكرش أيضاً. وجده أخيراً ولبسه، وكان ضيّقاً وقطنياً، لكنه لم يجد أفضل منه. وضع حقيبته وأغراضه في المشلح واتجه إلى الشاطئ حيث كان هنالك نفر من الشبان يلعبون الكرة، فحاول بيريرا اجتنابهم. نزل تحت الماء بهدوء، رويداً رويداً، تاركاً للانتعاش أن يعانقه على مهل. وعندما وصلت المياه إلى سرّته، غطس فيها وراح يسبح بانسياب وانسجام. سبح طويلاً، حتى شارات الأمان، وعندما عانق واحدة منها لهثت أنفاسه على ضربات قلبه الذي ينبض بشكل مريع. أنا مجنون، قال لنفسه، لا أسبح منذ دهر وأرمي نفسي في الماء هكذا، كأي رياضي محترف. استراح قليلاً وهو يعانق شارة الأمان، ثم انقلب يسبح على ظهره. كانت السماء فوق عينيه تجرحه بزرقتها. عاود الاستنشاق بهدوء فانتظمت دقات قلبه. وعندما وصل إلى الرمل، مرّ قرب المنقذ وأراد أن يزعجه. كما رأيت لم أحتج لطوق النجاة، قال له، متى يمر القطار إلى ايستوريل؟ نظر المنقذ إلى الساعة وأجاب: بعد نصف ساعة. جيد جداً، قال بيريرا، تعال معي إذن لأحاسبك فليس عندي كثير من الوقت. غيّر ثيابه في المشلح وخرج، دفع للمنقذ، وسرّح ما تبقى من شعر فوق رأسه بمشط يحمله في محفظته دوماً. إلى اللقاء، قال للمنقذ، راقبْ هؤلاء الفتية الذين يلعبون بالكرة، إنهم لا يعرفون السباحة جيداً برأيي، ثم إنهم يزعجون الآخرين.

نزل في النمر وجلس على مقعد تحت مظلة. شعر بوصول القطار فنظر إلى الساعة. تأخر الوقت، كانوا في المصحة ينتظرونه على الغداء على الأرجح، ففي المصحات يأكلون باكراً. قال في نفسه:

Titter: @ketab_n

صبراً. لكنه كان يشعر بالارتياح والانتعاش، بينما كان القطار يتوقف. كان لديه كل الوقت في المصحة، سوف يقضي أسبوعاً على الأقل كما يدّعي.

كانت الساعة حوالي الثانية والنصف عندما وصل إلى باريـــدي. استقلّ سيارة أجرة وطلب من السائق أن يأخذه إلى مصـــحة العـــلاج البحري. أتقصد مستوصف أمراض السل؟ سأل السائق. لا لا، أجاب، المصحّة التي على الشاطئ. إنها قريبة على مسافة خطوتين، قال السائق، بوسعك أن تذهب سيراً. اسمع يا أخينا، قال بيريرا، إنني متعب والطقس حار، ثم إنني سأعطيك الإكرامية.

كانت مصحة العلاج البحري تتكون من مـــبنى وردي وســـط حديقة كبيرة مطرزة بالنخيل. وكانت فوق الصخور، على علوّ مرتفع، ويوجد عتبات تؤدي إلى الشارع فالشاطئ. صعد بيريرا بشقّ الأنفـــس ودخل إلى بهو الاستقبال. استقبلته ممرضة بدينة، وجهها ممتلئ ووجنتاها حمراء، وترتدي مريولاً أبيض. أنا الأستاذ بيريرا، قال، لابدّ أن يكـــون طبيبـــي الدكتور كوستا قد اتصل بكم وحجز لي غرفة هنا. آه الأستاذ بيريرا، قالت الممرضة، كنا ننتظرك على الغداء، لماذا وصلت متـــأخراً، هل تغدّيت؟ في الحقيقة أكلت بعض الحلزونات البحرية في المحطة، أقرّ بيريرا، وشهيتي مفتوحة. اتبعني إذن، قالت الممرضة، المطعم مغلق ولكن ماريا ديس دوريس، الطباخة، بوسعها أن تحضّر لك شيئاً ما. قادته حتى صالة الغداء، وكان المكان واسعاً وتشرف نوافذه على البحر. لم يكـــن ثمة أحد. جلس بيريرا إلى إحدى الطاولات وجاءت ســـيدة عجـــوز، زغب وجهها بارز للعيان. أنا الطباخة ماريا ديس دوريس، قالت المرأة، بإمكاني أن أحضّر لك وجبةً مشوية. حبذا لو أتيتني بسمكة موســـى، شكراً، قال بيريرا. وطلب ليموناضة أيضاً وأخذ يشربها بتلذذ. نـــزع

Titter: @ketab_n

السترة وعقد المنديل حول عنقه. وعادت الطباخة بسمكة مشـــوية. لم يعد لدينا من سمكة موسى، قالت، حضّرت لك سمكة مرجان. وبـــدأ بيريرا يأكلها بنهم. حمّامات الطحالب تفتح عند الخامسة عصراً، قالت الطباخة، ولكن إن كنت متعباً وبحاجة لقيلولة بوسعك أن تبدأ غـــداً، طبيبك يدعى الدكتور كاردوزو، سيأتي للقائـــك في غرفتـــك عنـــد السادسة مساء. رائع، قال بيريرا، أعتقد أنني سأذهب لأستريح قليلاً.

صعد إلى الغرفة رقم 22، ووجد حقيبته هناك. أغلـــق مصـــراع النافذة، ونظّف أسنانه واستلقى على السرير دون أن يرتـــدي ثيـــاب النوم. وكانت النفحات الأطلسية العليلة تدخل مـــن بـــين فتحـــات المصراع وتحرّك الستائر. غفا بيريرا بسرعة، وحلم حلماً جميلاً، حلمـــاً من أيام شبابه، كان على شاطئ غرانخا يسبح في المحيط الذي بدا كأنه بركة صغيرة، وعلى الشاطئ كانت هنالك فتاة شاحبة تحمل منشـــفة وتنتظره. ثم عاد من سباحته ومازال الحلم مستمراً، وكان الحلم جمـــيلاً حقاً، لكن بيريرا يفضّل ألا يطلع أحد على نهايته، لأنّ الحلم، ليس لـــه أية علاقة بهذه الرواية، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

15

يدّعي بيريرا أنه سمع طرقاً على الباب حوالي السادسة والنصف، لكنه كان مستيقظاً ينظر إلى خيوط الضوء والظل التي تتسرب من فتحات المصراع إلى السقف. وكان يفكر في هونورين لبلزاك، ويفكّر في الندم، ويشعر بواجب أن يندم على شيء ما هو أيضاً، ولكن لم ينجح في تحديد موضوع الندم. تلظّت في قلبه رغبة بالحديث إلى الأب أنطونيو، لأنه أحب أن يطلعه على نيّته بالندم و لم يكن يعرف السبب. كان يحسّ بحنين إلى الندم فقط، هذا ما أراد قوله، أو ربما كانت فكرة الندم تعجبه ليس إلا، ومن يدري.

من بالباب؟ صاح بيريرا. حانت ساعة النزهة، قالت الممرضة من خلف الباب، الدكتور كاردوزو ينتظرك في البهو. لم يكن لدى بيريرا رغبة في أية نزهة، كما يدّعي، لكنه نهض على كل حال، فتح الحقيبة، لبس حذاء بشرائط، وبنطالاً قطنياً وقميصاً فضفاضاً ذا لون ترابيّ. وضع صورة زوجته على الطاولة وقال لها: حسناً، ها أنذا في مصحة العلاج البحري، ولكن سأمضي من هنا حالما أشعر بالضجر، لحسن الحظ أنني جلبت كتاباً لألفونس دوديه، فقد أقوم ببعض الترجمات للصحيفة، نحن نحب "الأشياء الصغيرة" لدوديه، أتذكرينها؟ قرأناها في كويمبرا وحرّكت مشاعرنا معاً، القصة تتحدث عن الطفولة، ربما كنا نفكر بإنجاب طفل لكنه لم يأت، لا بأس، صبراً.. على كل حال جلبت معي "حكايات الاثنين" وأعتقد أنّ إحدى هذه الحكايات

Titter: @ketab_n

ستكون ملائمة لصحيفة لشبونيا، حسناً، أستأذنك، عليّ أن أذهب، يبدو أن الطبيب ينتظرني، سنرى ما هي طرق العلاج البحري، نلتقي لاحقاً.

عندما وصل إلى البهو رأى سيداً بمريول أبيض ينظر إلى البحر من النافذة. اقترب منه بيريرا. كان رجلاً بين الخامسة والثلاثين والأربعين من العمر، بلحية خفيفة شقراء مدببة وعينين زرقاوتين. مساء الخير، قال الطبيب بابتسامة خجولة، أنا الطبيب كاردوزو، حضرتك الأستاذ بيريرا على ما أعتقد، كنت أنتظرك، حان وقت نزهة المرضى على الشاطئ، ولكن إن كنت تفضّل أن نجلس هنا أو في الحديقة فلا مشكلة. أجاب بيريرا أنه في الواقع لا يرغب كثيراً بالمشي على الشاطئ، قال إنه قد سبح على شاطئ سانتو امارو في اليوم نفسه. رائع، هتف الطبيب، كنت أظن أنني سأتعامل مع مريض صعب، ولكنني أرى أنك تهوى الطبيعة. ربما أهوى الذكريات أكثر، قال بيريرا. بأي معنى؟ سأل الطبيب. سأشرح لك الأمر لاحقاً، قال بيريرا، ولكن ليس الآن، ربما في الغد.

خرجا إلى الحديقة. هلّا تنزّهنا؟ اقترح الطبيب، ستكون النزهة مناسبة لك ولي أيضاً. كانت ثمة حديقة جميلة خلف النخيل الذي ينمو بين الصخور والرمال. تبع بيريرا الطبيب إلى هناك، ويبدو أنّ الأخير يحب الدردشة. في هذه الأيام سأتولى أمرك يا أستاذ بيريرا، قال الطبيب، لذا أنا بحاجة لأتحدث إليك لمعرفة عاداتك، لا ينبغي أن تخفي عني أسرارك. اسألني ما تريد، قال بيريرا بصدر رحب. انتزع الطبيب كمشة من الأعشاب ووضعها في فمه. لنبدأ من عاداتك الغذائية، سأل، ما هي؟ في الصباح أتناول القهوة، أجاب بيريرا، ثم الغداء والعشاء، مثل الجميع، عادات بسيطة جداً. وماذا تأكل بالعادة،

Titter: @ketab_n

سأل الطبيب، أعني ما هو نوع الغذاء الذي تتناوله؟ المقالي، أراد بيريرا أن يقول، في الواقع لا آكل إلا المقالي، الخادمة لا تحضّر لي إلا الخبز مع المقالي وفي المقهى لا يقدّمون سوى البيض المخفوق مع الأعشاب المنكهة. لكنه شعر بالخجل وأجاب بشكل مختلف: أغذية متنوعة، سمك ولحم وخضروات، إنني منفتح على جميع المأكولات وأغذّي نفسي بطريقة معقولة. ومتى بدأت هذه الأعراض بالظهور؟ سأل الطبيب. منذ عدة أعوام، أجابه، بعد وفاة زوجتي. وبالنسبة للحلوى، سأل الطبيب، هل تأكل الكثير من الحلويات؟ أبداً، أجاب، لا تعجبني الحلويات، أشرب الليموناضة فقط. الليموناضة، كيف؟ تعجّب الطبيب. مشروب عصير طبيعي، قال بيريرا، يعجبني جداً، ينعشني وأتصور أنه يساعدني على الهضم، إذ أنّ معدتي غالباً ما يصيبها التخبّط. كم كأساً تشرب في اليوم؟ سأل الطبيب. فكر بيريرا لوهلة وأجاب: الأمر يتعلق بالأيام، ففي الصيف مثلاً عشرة كؤوس. عشرة كؤوس ليموناضة في اليوم؟! هتف الطبيب، أستاذ بيريرا هذا يبدو جنوناً، قل لي هل تضع السكر أيضاً؟ أملأها سكراً، قال بيريرا، نصف ليمون ونصف سكر. بصق الطبيب العشب من فمه، حرّك يده بطريقة حاسمة وأفصح: لا ليموناضة من الآن فصاعداً، سنستبدلها بالمياه المعدنية، ويفضّل أن لا تكون غازيّة، ولكن إن كنت تحبّها غازيّة فما من مشكلة. كان هنالك مقعد تحت شجرة الأرز جلس بيريرا عليه وأرغم الطبيب على الجلوس. اعذرني أستاذ بيريرا، قال الطبيب، الآن أريد أن أطرح سؤالاً حميمياً، بالنسبة للنشاطات الجنسية؟ نظر بيريرا إلى قمم الأشجار وقال: اشرح أكثر دكتور. النساء، شرح الطبيب، هل تعاشر النساء، هل لديك نشاط جنسي طبيعي؟ اسمع يا دكتور، قال بيريرا، أنا أرمل، لم أعد شاباً وعندي عمل شاق، ليس لديّ وقت ولا رغبة للذهاب مع النساء. ولا

Titter: @ketab_n

حتى آنسات؟ سأل الطبيب محرّكاً عينيه ذات اليمين وذات الشمال، مغامرة مثلاً، سيدة سهلة المراس، من فترة لفترة. ولا حتى ذلك، قال بيريرا وسحب سيجاراً مستأذناً الطبيب بالتدخين، فسمح له قائلاً: التدخين مضرّ للقلب ولكن إن استطعت التخفيف منه فما من مشكلة. إنني أدخن لأنّ أسئلتك تخجلني، اعترف بيريرا. فضحك الطبيب قائلاً: خذ سؤالاً مخجلاً آخر، هل لديك أحلام إيروتيكية توصلك إلى اللذة، بمَ تحلم بالضبط؟ دكتور أرجوك، أجاب، لقد علّمني أبي أنّ الأحلام هي أشياؤنا الأكثر خصوصية ولا ينبغي أن نطلع أحداً عليها. لكنك هنا للعلاج وأنا طبيبك، رد الطبيب، نفسيتك لها علاقة بجسمك، وعليّ أن أعرف بم تحلم. أحلم غالباً بغرانخا، اعترف بيريرا. أهي امرأة؟ سأله الطبيب، فردّ بيريرا: كلا إنه شاطئ قريب من اوبورتو، كنت أرتاده في شبابي عندما كنت طالباً في كويمبرا، وشاطئ ايسبينيو النظيف، فيه مسبح وكازينو، وغالباً ما كنت أسبح هناك وألعب البلياردو، فيه صالة بلياردو رائعة، وكانت ترافقني محبوبتي التي تزوجتها فيما بعد، كانت فتاة مريضة ولكن في تلك الأيام لم تكن تعلم أنها مريضة سوى أنها تشعر دوماً بألم في الرأس، تلك الحقبة كانت الأجمل في عمري، وأنا أحلم بها دائماً ربما لأنني أحب أن أحلم بها. حسناً، قال الطبيب، يكفي اليوم، أتمنى أن نتعشى سوياً هذا المساء وندردش قليلاً، أنا أحب الأدب كثيراً ورأيت أنّ جريدتكم تعطي مساحة لا بأس بها للكتّاب الفرنسيين من القرن التاسع عشر، أنا درست في باريس، وثقافتي فرنسية. سأصف لك برنامج الغد، نلتقي في المطعم عند الساعة الثامنة مساءً.

نهض الطبيب وألقى التحية، وظلّ بيريرا جالساً ينظر إلى قمم الأشجار. اعذرني دكتور، أضاف بيريرا، وعدتك أن أطفأ السيجار، ولكني أرغب في أن أدخنه حتى النهاية. افعل ما يحلو لك، أجاب

Titter: @ketab_n

الطبيب، الحمية سوف تبدأ من الغد. بقي بيريرا وحيداً يدخن. فكّر أنّ الطبيب كوستا، والذي كان يعرفه منذ زمن بعيد، لم يكن ليقوم بأسئلة شخصية وخصوصية كهذه، فالأطباء الشبّان الذين درسوا في باريس كانوا مختلفين قطعاً. شعر بيريرا بالعجب والحيرة الشديدة، لكنه رأى من الأفضل أن لا يفكر في الأمر كثيراً، فهذه مصحة فريدة من نوعها طبعاً، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

16

في تمام الساعة الثامنة كان الطبيب كاردوزو جالساً إلى الطاولة في صالة المطعم. بيريرا يدّعي أنه هو أيضاً وصل على الموعد، واتجه إلى الطاولة. كان قد ارتدى بدلته الرمادية وربطة العنق السوداء. وعندما دخل إلى الصالة أخذ ينظر حوله، ورأى أنّ الحضور حوالي الخمسين شخصاً، جالسين اثنين اثنين إلى كل طاولة لتناول وجبة العشاء، وغالبيتهم في أرذل العمر، أي إنهم أكبر منه دون شك. فامتلأ قلبه بالسرور، كما يدّعي، إذ أدرك أنه أصغر العجزة سناً في الحقيقة، وبات سعيداً لأنه لم يصل إلى سن الشيخوخة بعد. ابتسم الطبيب لمجيئه وأراد أن ينهض احتراماً، فدعاه بيريرا، بحركة من يده، للبقاء على الكرسي. حسناً أيها الطبيب، قال بيريرا، أنا تحت تصرّف أسئلتك هذا العشاء. قال الطبيب: من أهم القواعد الصحية على الإطلاق تناول كأس من المياه المعدنية على الريق. غازية؟، سأل بيريرا. كما تحب، سمح له الطبيب وصب له الماء. شرب بيريرا الكأس بقليل من التقزز، واشتهى الليموناضة. أستاذ بيريرا، قال الطبيب، يسعدني أن أعرف ما هي مشاريعك بالنسبة للصفحة الثقافية لجريدة لشبونيا، أقدّر جداً زاوية "الأحداث" التي تناولت بيسوا وحكاية موباسان، كانت ترجمة ناجحة فعلاً. لقد ترجمتها بنفسي، أجاب بيريرا، ولكني لا أحب الإمضاء. عليك أن تفعل ذلك، ردّ الطبيب، خاصة في المقالات فائقة الأهمية، وفي المستقبل ماذا ستقدّم لنا في الجريدة؟ سأقول لك يا دكتور، أجاب

Titter: @ketab_n

بيريرا، ثمة قصة لبلزاك في الأعداد الثلاثة القادمة، تدعى هونورين، لا أعلم إن قرأتها من قبل. هزّ الطبيب كاردوزو برأسه نافياً. إنها قصة تتحدث عن الندم، أكمل بيريرا، قصة جميلة عن الندم، ثم إنني قرأتها من ناحية ذاتية. سأل الطبيب: إنها عن ندم الكاتب العظيم بلزاك إذن؟. بقي بيريرا يتأمل لوهلة، ثم قال: اعذرني إن سألتك يا دكتور، قلت لي عصراً إنك درست في فرنسا، ماذا درست بالتحديد؟ أنا تخرجت من كلية الطب، أجاب الطبيب، ثم تخصصت في مجالين، الأول في علم الحمية والثاني في علم النفس. عذراً ولكن ما الرابط بين الاختصاصين؟، بيريرا يدّعي أنه قام بهذا التساؤل. بل ثمة رابط أكبر مما تتخيل، أجاب الطبيب، لا أعرف إن كنت قادراً على تخيّل الروابط التي تلتحم بين الجسد والنفس، هنالك الكثير الكثير من هذه الروابط، على كل حال كنت تقول إنّ حكاية بلزاك قصة ذاتية. لا لم أكن أقصد ذلك، أجاب بيريرا، أردت أن أقول إنني قرأتها من ناحية ذاتية، واكتشفت نفسي فيها. في الندم؟ سأل الطبيب. ربما، قال بيريرا، حتى لو بشكل عرضي، بل مجاور، فلنقل إنني تعرفت على نفسي بطريقة مجاورة.

أشار الطبيب للنادلة. هذا المساء سنأكل السمك، قال، أنا أفضّل أن تتناول سمكاً مشوياً أو مسلوقاً، وإذا أردت أن تختار طريقة تحضير أخرى فلا مشكلة. لقد تناولت السمك المشوي على الغداء، بيريرا يبرر، والمسلوق لا يعجبني أبداً، يذكّرني بالمشافي، ولا أريد أن أعتبر نفسي في مشفى، أفضّل أن أعتبر إقامتي هنا كما لو كنت في فندق، سأطلب سمك الطحان بكل سرور. جيد، قال الطبيب للنادلة، سمك الطحان مع الجزر بالزبدة لكلينا. ثم أكمل: ندم بطريقة مجاورة، ماذا يعني هذا؟ ردّ بيريرا: طالما أنك درست علم النفس فهذا يشجعني على الحديث، ربما من الأفضل أن أتحدث عن هذا الأمر مع صديقي الأب

Titter: @ketab_n

أنطونيو، الخوري، ولكني لست متأكداً من أنه سيفهمني، لأنّ الخوري يسمع اعترافاتنا عن أخطائنا وأنا أشعر أنني مذنب على غلطة لم أرتكبها، ورغم هذا أرغب بالندم، بل أشعر بالحنين إلى الندم. فقال الطبيب: أرجو منك أن تتعمق بالمسألة أكثر يا أستاذ بيريرا، وإن كنت ترغب بالحديث معي عن ذلك فأنا تحت تصرّفك. حسناً، قال بيريرا، إنه إحساس غريب، يوجد في جوانب شخصيتي، ولهذا أطلق عليه "مجاور"، فأنا من جهة راضٍ عن الحياة التي عشتها، وسعيد لأنني درست في كويمبرا، ولأنني تزوجت إمرأة مريضة قضت حياتها في المستوصفات، ولأنني مارست صحافة الجرائم والتحقيقات لأعوام طويلة في جريدة كبرى، ولأنني وافقت على إدارة الصفحة الثقافية في جريدة متواضعة مؤخراً، ولكن في الوقت ذاته، أشعر برغبة في الندم على هذه الحياة التي عشتها، هل وضحت الصورة؟

بدأ الطبيب كاردوزو يتناول طعامه وفعل بيريرا مثله. لابدّ أن أعرف ماذا فعلت في الأشهر الأخيرة، قال الطبيب، ربما كان هنالك حدث ما. ماذا تعني بحدث أيها الطبيب؟ سأل بيريرا. فأجابه: حدث هو مصطلح في التحليل النفسي، أنا لا أصدق كلّ ما قال فرويد، لأنني من أتباع التوفيقية بين المدارس، لكنني أعتقد أنّ فرويد كان محقاً بشأن الحدث دون شك، الحدث هو أمر حاصل ملموس يتحقق في حياتنا ويغيّر من قناعاتنا أو يربك توازننا، بالنتيجة الحدث هو أمر ينتج في الحياة الواقعية ويؤثر على الحياة النفسية، عليك أن تتذكّر إن حدث أمر ما في حياتك. تعرفت على شخص في الآونة الأخيرة، يدّعي بيريرا بأنه قال، بل شخصين، شاب وشابة. تفضّل كلّمني عنهما، قال الطبيب. أجل، قال بيريرا، ما حدث أنني كنت بحاجة لمرثيات مسبقة لأدباء كبار قد يموتون بين لحظة وأخرى بهدف تطوير الصفحة الثقافية،

Titter: @ketab_n

والشخص الذي تعرفت عليه تخرّج من كلية الفلسفة بأطروحة عن الموت، لا أخفيك أنه قد نسخها من بعض الكتب حسب اعترافه، لكنه في البداية بدا لي ضليعاً بموضوع الموت، وهكذا اتخذته مساعداً ليكتب مرثيات مسبقة، وكتب بعضها، ودفعت له من جيبي لأنني لا أريد أن أثقل على الجريدة، إلا أنّ كل المرثيات التي كتبها غير قابلة للنشر، لأن الشاب مولع بالسياسة فيكتب على أساس سياسي، وفي الحقيقة لا أشك في أنّ حبيبته هي التي تضع تلك الأفكار في رأسه، عن الفاشية والاشتراكية والحرب الأهلية في إسبانيا وأشياء من هذا القبيل، كلها مقالات غير صالحة للنشر كما قلت، وأنا دفعت له من جيبي. لا بأس على الإطلاق، أجاب الطبيب، أنت تخاطر بنقودك فقط بالمحصّلة. ليس هذا، يدّعي بيريرا أنه أقرّ، ما حدث أنّ الشكوك ساورتني فيما إذا كان هذان الشابان على صواب. في هذا القضية هما على صواب، قال الطبيب بوداعة، وتبقى هذه وظيفة التاريخ في إثبات ذلك وليس حضرتك يا أستاذ بيريرا. نعم، قال بيريرا، ولكن إن كانا على صواب فلا معنى لحياتي إذن، لا معنى أنني درست الآداب في كويمبرا وأنني اعتقدت دوماً أن الأدب هو الشيء الأهم في الحياة، ولا معنى أنني أدير صفحة ثقافية لجريدة المساء إذ لا أستطيع أن أعبّر بها عن رأيي وأكتفي بنشر حكايات فرنسية من القرن التاسع عشر، لا معنى لكل ذلك عندئذٍ، لذا أشعر بحاجتي للندم، كأنني بحاجة لنفي شيء ما، كما لو كنت شخص آخر وليس بيريرا الذي عمل كصحفي طيلة حياته.

أشار الطبيب كاردوزو إلى النادلة وطلب منها سلطة فواكه بدون سكر وبدون آيس كريم. أريد أن أسألك، قال الطبيب، هل تعرف الأطباء الفلاسفة؟ لا، أجاب بيريرا، لا أعرفهم، من هم؟. قال الطبيب: إنهم أطباء وعلماء نفس ولكن فلاسفة في الوقت ذاته، اشتهر منهم

Titter: @ketab_n

تيودول ريبو وبيير جانيت، وأنا درست من نصوصهما في باريس، يتبنون نظرية أراها في غاية الأهمية، إلا وهي "كونفدرالية الأرواح". أخبرني عن هذه النظرية، بيريرا ينتابه الفضول. حسناً، قال الطبيب، تقوم النظرية على اعتبار الإيمان بروح واحدة مكتفية بحدّ ذاتها، ومنفصلة عن تعددية الأنا اللامتناهية، محض وهم ناتج عن السذاجة بعينها ومؤسَّس على فرضية الروح الواحدة في التراث المسيحي. ويرى الدكتور ريبو والدكتور جانيت أنّ الشخصية تشبه الدولة الفدرالية بين أرواح متعددة، فنحن نملك في داخلنا أرواحاً متعددة تتحد في ما بينها ضمن فدرالية تخضع لسيطرة الأنا الأعلى المهيمن. صمت الطبيب لوهلة ثم تابع: ما يسمى بالسويّة أو الكينونة أو الطبيعة هي مجرّد نتيجة، وليست حالة سابقة أو مسبِّبة، وتخضع لسلطة الأنا الأعلى الذي فرض نفسه في فدرالية الأرواح، وحالما يبرز أنا آخر أكثر قوة وشباباً، فإنه سيطيح بحكومة الأنا الحاليّ ويأخذ محلّه، ويأتي دوره لإدارة حلقة الأرواح المتحدة، أو بالأحرى كونفدرالية الأرواح، ويظلّ متشبثاً بالسيادة حتى يظهر أنا آخر وينازعه على حكمه ويطيح به سواء بانقلاب سريع أم بانجراف بطيء، ربما أنت تشهد بروز أنا أعلى يسعى لاستلام سلطة الفدرالية على أرواحك بعد انجراف طويل وبطيء جداً يا أستاذ بيريرا. وفي حالة كهذه لا يسعك فعل شيء، عليك أن تنتظر فقط لا غير.

أنهى الطبيب سلطة الفواكه ومسح فمه بالمنديل. وما الذي عليّ فعله إذن؟ سأل بيريرا. لا شيء، أجاب الطبيب، الانتظار فقط، بعد كل تلك السنوات التي قضيتها في الصحافة التحقيقية معتقداً بأن الأدب أهم شيء في العالم، ربما يوجد أنا أعلى جديد في داخلك، يجهّز نفسه لقيادة فدرالية أرواحك، دعه يصل إلى غايته، إذ من المحال الوقوف في

Titter: @ketab_n

وجهه وإلا دخلت في صراع مرير مع ذاتك، وإن كنت ترغب بالنـــدم على ما مضى فافعل، وإن كنت ترغب في سرده على صديقك الخوري فلا مانع، خلاصة القول: بإمكانك أن تعتقد بعدم جدوى حياتك إثـــر اكتشافك لصواب هذين الشابين، ربما لن تبدو حياتك فاشلة من اليوم فصاعداً، سلّمْ أمرك لهذا الأنا الجديد ولا تعذّبه بالنهم علـــى الطعـــام وشرب الليموناضة المليئة بالسكر.

أنهى بيريرا سلطة الفواكه ونـــزع المنديل الذي ربطه على عنقه. هذه النظرية في غاية الأهمية أيها الطبيب، قال، سأفكر فيها مليّـــاً، أود احتساء القهوة، ما رأيك؟ فردّ الطبيب: القهوة تسبب الأرق، ولكن إن كنت ترغب بالسهر فهذا شأنك، ستكون على موعـــد مـــع حمّـــام الطحالب لمرتين في النهار، في التاسعة صباحاً وفي الخامسة مساء، وأتمنى أن تلتزم بالانضباط في المواعيد، وأنا على يقين أنّك ستشعر بالراحة بعد حمّام الطحالب. ليلة سعيدة، غمغم بيريرا ونهض وابتعد. سار خطوتين ثم التفت. كان الطبيب يبتسم. سأكون في تمام التاسعة هناك، يـــدّعي بيريرا أنه قال ذلك.

Titter: @ketab_n

17

يدّعي بيريرا أنه في التاسعة صباحاً نـــزل العتبات التي تـــؤدي إلى شاطئ المصحة. كانوا قد جهّزوا حوضين كبيرين، علـــى الشـــاطئ، تحفّهما الصخور وتدخل فيهما أمواج المحيط علـــى رســـلها. وكـــان الحوضان ممتلئين بالطحالب الطويلة والضخمة واللامعة التي تشكّل طبقة متماسكة على سطح الماء، وكان بعض المرضـــى يغطســـون فيهـــا. وبالقرب من حوضي السباحة، يوجد كوخان خشبيان مطليان بالأزرق خُصّصا لترك الثياب. رأى بيريرا الدكتور كاردوزو يراقـــب المرضـــى الغاطسين في الحوض ويزوّدهم بتعليمات عن الحركة. اقترب منه وهنأه بيوم جميل. بيريرا يدّعي أنه كان يشعر بمزاج هـــادئ، ولديـــه رغبـــة بالغطس في الحوض، حتى لو كان الجوّ عند الشاطئ صافٍ مما يـــنقص من حرارة المياه ويجعلها غير ملائمة للسباحة. طلب بيريرا من الطبيـــب أن يعطيه لباساً، لأنه نسي أن يجلب معه لباس سباحة، وسأله إن كـــان بالإمكان أن يجد له لباساً من الموضة القديمة، ذلك الذي يغطي الـــبطن وجزءاً من الصدر. هزّ الطبيب رأسه: أنا آسف يا أستاذ بيريرا، عليك أن تتغلب على حيائك، إنّ فوائد الطحالب تظهـــر بـــالأخص عنـــد الاحتكاك بالجلد، ومن الضروري أن تدلّك بطنك وصدرك بها، لـــذا لابدّ أن تلبس بنطالاً قصيراً. استسلم بيريرا ودخل إلى المشـــالح. تـــرك بنطاله وقميصه ذا اللون الترابـــي عند الحارس وخرج. كان الجو بارداً، ولكنه منعش. تلمّس بيريرا الماء بقدمه، و لم يجدها شديدة البرودة كما

Titter: @ketab_n

توقّعها. دخل تحت الماء ببطء، وهو يشعر بقليل من الاشمئزاز من تلك الأعشاب التي كانت تعوم حول جسمه. وجاء الطبيب كـــاردوزو إلى حافة الحوض وبدأ يعطي تعليماته قائلاً: حرّكْ ذراعيك كأنـــك تقـــوم بتمارين رياضية، ودلّكْ بطنك وصدرك بالطحالـــب. اتبـــع بيريـــرا التعليمات حرفياً حتى شعر بضيق طفيف في التنفس. فتوقّف حينها عن الحركة، والماء تغمره حتى عنقه، وأخذ يحرّك يديه ببطء. كيف كانت ليلتك؟ سأله الطبيب. لا بأس، أجابه، قرأت حتى ساعة متـــأخرة، إذ جلبت معي كتاباً لألفونس دوديه، أيعجبك هذا الكاتـــب؟ لا أعرفـــه جيداً، اعترف الطبيب. لقد فكّرت أن أترجم قصـــة مـــن حكايـــات الاثنين، وأود نشرها في صحيفة لشبونيا، قال بيريرا. حدّثْني عنها، قال الطبيب. حسناً، قال بيريرا، عنوان القصة "الدرس الأخير"، تتحدث عن معلّم في قرية فرنسية في الألزاس، كان تلاميذه من أبناء الفلاحين، وهم فتية فقراء عليهم أن يعملوا في الحقول ويدرسوا أيضاً مما أوصل المعلّـــم إلى اليأس. تحرّك بيريرا خطوة للأمام كي لا تدخل المياه في فمـــه. وفي النهاية، أكمل، في آخر يوم من المدرسة، تضع الحرب الفرنسية البروسية أوزارها، والمعلم ينتظر أن يصل تلاميذه بفارغ الصبر، بينما يرى كـــل رجال القرية، الفلاحين والعجزة، آتين ليكرّموه، فهو معلم فرنسي عليه أن يغادر القرية ما إن يخضع ترابها للألمان في صباح اليوم التالي، فيدخل المعلّم إلى أحد الصفوف ويكتب على السبورة "تحيا فرنسا"، ويمضـــي وعينيه تغرورق بالدموع، بعد أن هزّ مشاعر الجميع. نـــزع بيريـــرا عشبتين طويلتين من على ذراعه وسأل: ما رأيـــك بهـــا يـــا دكتـــور كاردوزو؟ قصة جميلة، أجاب الطبيب، ولكني لا أظـــنّ أنّ أحـــداً في البرتغال اليوم قادر أن يقرأ "تحيا فرنسا"، بسبب أوضاعنا الراهنة، ومن يدري يا أستاذ بيريرا فقد يكون ما قمت بترجمته ما هـــو إلا إفســـاح

Titter: @ketab_n

المجال للأنا الأعلى الجديد، أرى أنّه في طريقه للظهور. ماذا تقول يا طبيب، استغرب بيريرا، هذه قصة من القرن التاسع عشر وانقضى زمانها. أجل، ردّ الطبيب، بغضّ النظر عن زمانها فإنها تبقى قصة ضد ألمانيا، وألمانيا لا تمسّ في بلدنا اليوم، أرأيت كيف أصبحت التحية في العروض الرسمية، يؤدون التحية كلهم بالذراع المرفوع، مثل النازيين. صبراً، قال بيريرا، لكنّ لشبونيا صحيفة مستقلة. ثم سأل: هل بوسعي أن أخرج؟ ابق عشر دقائق إضافية، أجاب الطبيب، طالما أنك تحت الماء ابق حتى ينتهي الزمن الكامل للعلاج، ولكن اعذرني ماذا تقصد بصحيفة مستقلة في البرتغال اليوم؟ أعني أنها صحيفة لا تتبع لأي حركة سياسية، أجاب بيريرا. ربما، قال الطبيب، ولكن رئيس التحرير، يا أستاذ بيريرا العزيز، هو واحد من أزلام النظام، يظهر في كل العروض الرسمية، ويرفع ذراعه مثلهم، بل يبالغ في التحية حتى ليبدو كأنه يرمي ذراعه كالرمح. هذا صحيح، أقرّ بيريرا، لكنه في النهاية ليس شخصاً سيئاً، وقد أعطاني صلاحيات واسعة بما يتعلق بالصفحة الثقافية. طبعاً، اعترض الطبيب، بما أنهم اعتمدوا الرقابة الوقائية، فكل يوم، قبل صدورها، تمرّ مسودات صحيفتكم عبر الرقابة الوقائية، وكن مطمئناً أنهم سيقصّون أي شيء يرونه سيئاً، قد يضعون بدلاً عنه فراغاً أبيض يسبب الغضب والكآبة. أدرك ذلك، قال بيريرا، لقد رأيت الفراغات ذات مرة، لكن في جريدتنا لم يحدث هذا ولا لمرة واحدة. قد يحدث في المستقبل، ردّ الطبيب بنبرة ممازحة، هذا يتعلق بالأنا الأعلى الذي سيعتلي فدرالية أرواحك. ثم تابع: أتعرف يا أستاذ بيريرا، إن كنت تريد مساعدة الأنا الأعلى الجديد الذي يسعى للإمساك بزمام الأمور، عليك أن تذهب إلى مكان آخر وتترك هذا البلد، أعتقد أنك ستشهد صراعات أقل مع ذاتك، وأنت تستطيع فعل ذلك، فمستواك

Titter: @ketab_n

المهني عالٍ جداً ناهيك عن إتقانك للغة الفرنسية، إضافة لكونك أعزب وليس لديك أولاد، فما الذي يربطك بهذا البلد؟. أجابه بيريرا: حياتي الماضية والحنين إليها، وأنت يا دكتور كاردوزو لماذا لا تعود إلى فرنسا؟ فأنت درست هناك وثقافتك فرنسية. لا أخفيك، أجاب الطبيب، إنني أتواصل مع مصحة علاج بحري في سان مالو، وربما أرحل من هنا بين لحظة وأخرى. هل أستطيع الخروج الآن؟ سأل بيريرا. ياإلهي، هتف الطبيب، مرّ الوقت دون أن نلاحظ ذلك، لقد بقيت خمسة عشر دقيقة أكثر من اللازم، بوسعك أن تخرج وترتدي ثيابك، سوف نتغدى معاً، ما رأيك؟ بكل سرور، وافق بيريرا.

يدّعي بيريرا أنه تغدى بصحبة الطبيب كاردوزو في ذلك اليوم، وأخذ بنصيحته وأكل سمكاً مسلوقاً. تحدثا عن الأدب، عن موباسان ودوديه، وعن فرنسا وعظمتها. ثم عاد بيريرا إلى غرفته واستراح لربع ساعة، أي مدة القيلولة حصراً، واستفاق لينظر إلى خطوط الضوء والظل التي تتسرب من فتحات المصراع إلى السقف. ونهض حين العصر، واستحم ولبس ثيابه ووضع ربطة العنق السوداء وجلس أمام صورة زوجته. وجدت طبيباً ذكياً، قال لها، اسمه كاردوزو، درس في فرنسا، وشرح لي نظريته عن الروح البشرية، بل إنها نظرية فلسفية فرنسية، يبدو أنّ داخل كلٍّ منا توجد فدرالية اتحادية لأرواح متعددة، وبين الفينة والأخرى ثمة أنا أعلى يحكم الفدرالية، الطبيب كاردوزو يجزم أنني أغيّر أناي الأعلى، كما تغيّر الأفعى جلدها، وأنّ هذا الأنا الأعلى سيغيّر حياتي، حسناً، لا أعرف مدى صحة هذا الكلام وللحقيقة لست مقتنعاً به كلياً، لا بأس، صبراً، سوف نرى.

ثم جلس إلى الطاولة وبدأ يترجم الدرس الأخير لدوديه. كان قد جلب معه القاموس الفرنسي، لأنه يساعده في عملية الترجمة. قام بترجمة

Titter: @ketab_n

صفحة واحدة على أمل أن ترافقه القصة وقتاً أطول. وبالفعل، في ذلك الأسبوع الذي بقي فيه بيريرا في المصحة، كان يترجم تلك القصة في وقت الظهيرة من كلّ يوم، كما يدّعي.

كان أمضى أسبوعاً رائعاً بين الحمية والعلاج والراحة، وأضفى عليه وجود الطبيب كاردوزو الذي استمتع بنقاشاته المهمة والمفيدة، لاسيّما في الأدب. كان أسبوعاً انتهى بلحظة. يوم السبت، على صفحات لشبونيا، خرجت الحلقة الأولى من هونورين لبلزاك وهنّأه الطبيب كاردوزو. لم يتصل به رئيس التحرير أبداً، مما يعني أنّ أمور الجريدة على قدم وساق. حتى مونتيرو روسي لم يتصل به، ولا حتى مارتا. لم يعد يفكّر بهم في الأيام الأخيرة. وعندما ترك بيريرا المصحة، آخذاً القطار إلى لشبونة، شعر بأنه في أحسن حال، وقد نحف أربعة كيلوغرامات، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

18

يدّعي بيريرا أنه عاد إلى لشبونة وقد انقضى جزء كبير من شهر أغسطس كأنه لم يكن. لم تعد الخادمة بعد، وجد بطاقة من سيتوبال في صندوق البريد تقول: "سأعود في منتصف سبتمبر لأنّ أختي ستقوم بعملية جراحية، أطيب المنى، بيدادا".

عاد بيريرا ليحيا في ملكية بيته مجدداً. وتغيّر الطقس لحسن الحظ وأصبح منعشاً بما فيه الكفاية. في المساء، كانت نسمات عليلة من الأطلسي تهبّ صوب المدينة حتى أرغمته على ارتداء المعطف. وعاد إلى مكتب القسم الثقافي و لم يكن ثمة مستجدات، سوى أنّ البوابة لم تعد تكشّر في وجهه بل صافحته بحرارة عالية، غير أنّ رائحة القلي المعهودة مازالت تحوم في الفناء. كان صندوق البريد شبه فارغ، وجد فاتورة الكهرباء فحوّلها إلى الفرع العام. ثم وجد رسالة من السيدة شافيز، امرأة خمسينية تكتب قصصاً للأطفال واقترحت واحدة للنشر في لشبونيا. كانت القصة عن الجنّ والسحرة، لا تمتّ بأي صلة إلى البرتغال ولابدّ أنّ السيدة قد نسختها من إحدى القصص الايرلندية. فردّ عليها بيريرا برسالة محترمة، داعياً إياها أن تستوحي من الفلكلور البرتغالي، فجريدة لشبونيا تتوجه للقارئ البرتغالي وليس للقارئ الأنكلوسكسوني.

وفي آخر الشهر تقريباً، وصلت رسالة من إسبانيا. كانت متوجهة إلى مونتيرو روسي، والعنوان المرسل إليه: "السيد مونتيرو روسي على

Titter: @ketab_n

عنوان الأستاذ بيريرا، شارع رودريغـــرو دا فونســـيكا 66 لشـــبونة البرتغال". تلهّف بيريرا لفتحها وكاد ينسى وجود مونتيرو روســـي في حياته، ثم استغرب كيف لهذا الشاب أن يستخدم عنوان القسم الثقافي في صحيفة لشبونيا كعنوان له. وضع الرسالة في مجلّد المرثيات دون أن يفتحها. تناول الغداء في اوركيديا كافيه، لكنـــه لم يطلـــب البـــيض المخفوق مع الأعشاب، لأنّ الطبيب كاردوزو منع عنه هذه الوجبـــة، و لم يعد يشرب الليموناضة، فطلب سلطة الســـمك وشـــرب الميـــاه المعدنية. كان حكاية هونورين لبلزاك قد نشرت كلها، ولاقت نجاحـــاً كبيراً لدى الجمهور. بيريرا يدّعي أنّه استقبل برقيتي تهنئة وشكر، الأولى من تافيرا تقول إنّ القصة جميلة جداً، والثانية من ايسترروميز تفيد بـــأن على الجميع أن يفكر في مسألة الندم لأهميتها. ففكر بيريرا أنّ أحداً ما قد عثر على القارورة ووصلت إليه الرسالة، ومن يدري. جهّز نفســـه ليشرف على إنجاز ترجمة حكاية ألفونس دوديه. اتصـــل بـــه رئـــيس التحرير في الصباح ليهنأه على قصة بلزاك، وقال إنّ العدد الأكبر مـــن البرقيات وصل إلى فرع الجريدة العام. وفكر بيريرا أنّ رئيس التحرير لم يكن على درجة لفهم الرسالة، فغمرته السعادة. وفي الحقيقـــة كانـــت تلك الرسالة ملغزة جداً، فلم تكن لتصل إلا لمـــن يفهمهـــا، ورئـــيس التحرير كان مستثنىً من الفهم والإدارك. والآن يا أستاذ بيريرا، سأله، ماذا تنوي أن تحضّر لنا؟ لقد أنهيت للتو ترجمة قصة لدوديـــه، أجـــاب بيريرا، أتمنى أن تلقى النجاح المنشـــود نفســـه. أتمـــنى أن لا تكـــون "الأرليزيه"، رد رئيس التحرير وهو يشهر واحدة من معارفه الأدبيـــة الضحلة بسذاجة، إنها قصة جريئة، ولست متأكداً إن كانت ستعجب قراءنا. لا ليست هذه، اكتفى بيريرا بهذا الجواب، إنهـــا قصـــة مـــن حكايات الاثنين تدعى الدرس الأخير، لا أعلم إن كنت قرأتها، إنهـــا

Titter: @ketab_n

قصة وطنية. لا أعرفها، أجابه، ولكن مرحباً بها مادامت وطنية، فجميعنا بحاجة أن نكون وطنيين اليوم، الوطنية مفيدة. ودّعه بيريرا وأغلق السماعة. كان يحمل الأوراق ليأخذها إلى المطبعة عندما رنّ الهاتف مجدداً. صباح الخير أستاذ بيريرا، أنا مارتا، إنني بحاجة لرؤيتك. رفرف قلب بيريرا وقال: مارتا كيف حالك؟ كيف حال مونتيرو روسي؟ فأجابته: سنتحدث لاحقاً، أين نلتقي هذا المساء؟ صمت بيريرا لوهلة وكان على وشك أن يدعوها إلى بيته، ثم ألغى الفكرة من أساسها: في اوركيديا كافيه، الساعة الثامنة والنصف. موافقة، قالت مارتا، أنا قصصت شعري وصبغته بالأشقر، سوف نلتقي هناك في الثامنة والنصف، عموماً مونتيرو روسي بخير وأرسل لك مقالاً.

خرج بيريرا إلى المطبعة، وكان متوتراً، كما يدّعي. فكر أن يعود إلى المكتب لينتظر ساعة العشاء، لكنه كان بحاجة للذهاب إلى المنزل ليستحم بمياه باردة. أخذ سيارة أجرة وأرغم السائق أن يصعد المنحدر الذي كان بيريرا يستصعب صعوده سيراً، إذ كان متعباً كما يدّعي، ووعده بالإكرامية. دخل إلى البيت وملأ الحوض بالماء البارد قبل كل شيء. وغطس فيها ودلّك بطنه برفق، كما علّمه الطبيب كاردوزو. ثم تنشّف وذهب إلى المدخل وتوقف عند صورة زوجته. مارتا اتصلت بي مجدداً، قال لها، تزعم أنّها قصّت شعرها وصبغته بالأشقر، ومن يدري لماذا، ستحمل إليّ مقالاً لمونتيرو روسي، فهو مايزال مشغولاً في شؤونه. هؤلاء الشباب يقلقونني، لا بأس، صبراً، سأروي لك المجريات فيما بعد.

يدّعي بيريرا أنه دخل إلى اوركيديا كافيه في الثامنة والخامسة والثلاثين دقيقة. لم يكن ليعرف مارتا بشعرها الأشقر القصير لو أنها لم ترتدِ فستانها المعتاد وتجلس قرب المروحة. بدت الفتاة مختلفة بمظهرها

Titter: @ketab_n

الجديد وتسريحة شعرها بضفيرتين خلف أذنيها، ما جعلها تبدو صبية أجنبية طائشة، كأنها فرنسية في أحسن الأحوال. ويبدو أنها خسرت عشرة كيلوغرامات من وزنها على الأقل، فتتأت عظام كتفيها كأنهما جوانح دجاجة جائعة، مع أنّ بيريرا لا يلبث يتذكر تناسقهما الجذّاب. جلس بيريرا قبالتها وقال لها: مساء الخير، ما الذي حدث لك؟ قررت أن أغير من ملامحي، أجابت مارتا، من الضروري، في بعض الحالات، أن نغيّر من شكلنا، وكان لابدّ أن أصبح شخصاً آخر.

لمع سؤال في رأسه، ومن يدري لماذا، حتى هو قد لا يعرف السبب. ربما لأنها كانت تبدو غير طبيعية بشعرها الأشقر حتى أجهد نفسه ليتعرف عليها، وربما لأنها كانت ترمي من حولها نظرات خاطفة كأنها تنتظر أحداً أو خائفة من شيء ما. ما يهمّنا أنّه سألها: وهل مازال اسمك مارتا؟ فأجابته: معك فقط أدعى مارتا، ولكن عندي جواز سفر فرنسي الآن، واسمي ليزا ديلوناي، مهنتي الرسم، وأنا في البرتغال للسياحة ولرسم بعض المناظر بالألوان المائية.

يدّعي بيريرا أنّ حمّى البيض المخفوق مع الأعشاب المنكهة وشراب الليموناضة اجتاحته على حين غرة. ما رأيك أن نتناول البيض بالأعشاب؟ سألها فأجابته: بكل سرور، ولكني أرغب بشرب نبيذ البورتو قبل العشاء. وأنا أيضاً، قال بيريرا وطلب كأسين من ذلك النبيذ. ثم أضاف: أشتم رائحة المصائب، هل أنت في ورطة يا مارتا؟ تفضّلي بالاعتراف. فلنقل إنني في ورطة، أجابته، لكنها ورطة تعجبني وأشعر فيها بغاية السعادة، ثم إنّ هذه حياتي التي اخترتها بنفسي. باعد بيريرا ذراعيه وقال لها: إذا كنت سعيدة بذلك فهذا شأنك، ولكن مونتيرو روسي في مصيبة كما أتخيل، لا أعرف عنه شيئاً منذ مدة، ما أخباره؟ فردّت مارتا: أنا بوسعي أن أتكلم عني وليس عن أي شخص

Titter: @ketab_n

آخر، وأجيب عن تساؤلات تخصني، لكنّه لم يتصل بك لأنه كان يمرّ بمشاكل عصيبة، ومازال خارج لشبونة إلى الآن، يطوف في آلينتيخو وما حولها، قد تكون مشاكله أكبر من مشاكلي بكثير، على أية حال إنه بحاجة للنقود ولهذا السبب أرسل لك مقالاً، يصلح لزاوية "أحداث تاريخية" على حدّ قوله، وبإمكانك أن تعطيني النقود لأرسلها إليه.

بالله عليك، "أحداث تاريخية"!، لا فرق بين مرثياته وتأريخاته فكلاهما غير قابل للنشر، وأنا أصبحت محاسباً عند السيد مونتيرو روسي خلقني الله لأدفع له المال من جيبي، لا أعرف ما الذي يمنعني عن طرده حتى الآن، لقد عرضت عليه مهنة الصحافة وتوقعت له مستقبلاً زاهراً، وهو يغيب ويأتيني بهذا الهراء.. بيريرا أراد أن يقول هكذا، لكنه لم يقل أي شيء من هذا، بل أخرج محفظته وأعطاها النقود. أرسليها إليه باسمي، قال لها، وأعطني المقال. فأخرجت مارتا ورقة من حقيبتها وأعطته إياها. اسمعي يا مارتا، قال بيريرا، يسعدني أن تعتمدي عليّ في بعض الأمور، حتى لو كنت أرغب بالبقاء بعيداً عن مشاكلكما، فكما تعرفين أنا لا أهتم بالسياسة، عموماً إذا تواصلت مع مونتيرو روسي، قولي له أن يتصل بي لأمر ضروري، فقد أستطيع مساعدته هو أيضاً، بطريقتي الخاصة. إنك تساعدنا جداً يا أستاذ بيريرا، قالت مارتا، قضيتنا لن تنسى وقوفك إلى جانبنا. بعد أن أكملت وجبتها قالت مارتا إنّ عليها الذهاب، فصافحها بيريرا ومضت بخطوات سريعة ورشيقة. وظلّ بيريرا جالساً إلى الطاولة وطلب ليموناضة أخرى. أراد أن يتحدث بكل هذا مع الأب أنطونيو، لكن الأخير نائم في تلك الساعة دون أدنى شك، والطبيب كاردوزو كان بعيداً في باريدي. شرب الليموناضة ودفع الحساب. ما الذي يحدث يا مانويل؟ سأل النادل حين اقترب منه، فأجابه: أمور لا تخطر في بال

Titter: @ketab_n

أحد يا أستاذ بيريرا. أمسك بيريرا بذراع النادل: وماذا يعني هذا؟ أخبرْني. ألا تعلم ما الذي يحدث في إسبانيا؟ سأله النادل. كلا لا أعلم، قال بيريرا. يبدو أنّ ثمة كاتب فرنسي كبير قدّم استنكاراً على القمع الفرانكي في إسبانيا، قال مانويل، وأحدثَ فضيحة في الفاتيكان. وما اسم هذا الكاتب الفرنسي؟ سأل بيريرا. لا أذكر اسمه الآن، أجاب مانويل، إنه كاتب قد تعرفه حضرتك بالتأكيد، يدعى برنان، برناديت، شيء من هذا القبيل. برنانوس، صاح بيريرا، هل اسمه برنانوس؟ بالضبط، أجاب مانويل، هذا هو اسمه. إنه كاتب كاثوليكي كبير، قال بيريرا بافتخار، لقد توقعت أن يتخذ موقفاً، إنه رجل المبادئ والقيم والأخلاق. وخطر بباله أنه قد يستطيع نشر فقرتين من "يوميات خوري من الريف" في جريدته، بما أنها لم تُترجم بعد إلى البرتغالية.

ألقى التحية على مانويل وترك له إكرامية كبيرة. كانت لديه رغبة بالحديث إلى الأب أنطونيو، لكنه كان نائماً تلك الساعة، فهو يستيقظ في السادسة من كل صباح ليحضّر الصلاة في كنيسة داس ميرسيس، كما يدّعي بيريرا.

Titter: @ketab_n

19

يدّعي بيريرا أنه استيقظ باكراً جداً في صبيحة اليوم التالي، وذهب للقاء الأب أنطونيو. باغته في مخزن الألبسة الكهنوتية في الكنيسة، بينما كان يبدّل الثياب المقدسة. كان المخزن منعشاً جداً، ولوحات الإيمان والنذر تطغي على جدرانه.

صباح الخير يا أبونا، قال بيريرا، هاأنذا هنا. أوه بيريرا، صاح الأب أنطونيو، لم أرك منذ مدة، أين كنت مختفياً؟ كنت في باريدي، بيريرا يبرر غيابه، قضيت أسبوعاً في باريدي. في باريدي؟ استغرب الخوري، وماذا كنت تفعل هناك؟ كنت في مصحة العلاج البحري، أجاب بيريرا، اتبعت علاجاً طبيعياً وحمّامات الطحالب. طلب منه الأب أنطونيو أن يساعده في نزع الرداء عن كتفيه وقال له: تخطر في رأسك أفكار عجيبة. لقد نحفت أربع كيلوغرامات، أضاف بيريرا، وتعرّفت على طبيب حدّثني عن نظرية مثيرة للاهتمام عن الأرواح. أهذا جئت إلي؟ سأله. نوعاً ما، أقر بيريرا، لكني أردت التحدث في أشياء أخرى أيضاً. تكلّم إذن، قال الخوري. حسناً، بدأ بيريرا، إنها نظرية لاثنين من الفلاسفة الفرنسيين وهما عالمي نفس أيضاً، يدّعون أننا لا نملك روحاً واحدة إنما إتحادية أرواح متعددة يقودها الأنا الأعلى المهيمن، وفي كل مرة يتغير الأنا الأعلى هكذا إلى أن نبلغ قاعدة لكنها ليست ثابتة، بل قاعدة متغيرة. اسمعني جيداً يا بيريرا، قال الأب أنطونيو، إنني فرنسيسكاني، وأنا شخص بسيط، ويبدو لي أنك تهرطق،

Titter: @ketab_n

الروح البشرية واحدة وغير قابلة للتجزئة، وإنه الله الذي وهبنا إياهـــا. نعم، ردّ بيريرا، ولكن لو وضعنا كلمة "الشخصية" محل "الروح"، كما يقصد الفيلسوفان الفرنسيان، لسقطت صفة الهرطقة عن النظرية، وإنني مقتنع بأنّه ليس لدينا شخصية واحدة، بل شخصيات عديدة تتعايش في ما بينها تحت قيادة الأنا الأعلى. تبدو لي نظريـــة مضـــللة وخطـــيرة، اعترض الخوري، الشخصية تتعلق بالروح، والروح واحدة ولا تقسّم، إلا أنّ رائحة الهرطقة تفوح من كلامك. فاعترف بيريرا: ولكنني أشعر أنني تغيرت منذ شهر، أفكر بأشياء لم أكن لأفكر بها من قبل، وأتصرف بما لم أكن لأتصرف به يوماً. ربما حدث لك شيء مـــا، قـــال الأب أنطونيو. تعرفت على شخصين، أجاب بيريرا، شاب وشـــابة، وربمـــا تغيّرت بمعرفتهما. يحدث ذلك، قال الخوري، الأشخاص يـــؤثرون. لا أعرف كيف يؤثرون بـــي، قال بيريرا، إنهمـــا شخصـــان بائســـان رومنسيان بلا مستقبل، ربما أكون أنا من يؤثّر بهما، فأنا مـــن يقـــوم بمساعدتهما، بل الشاب على وجه الخصوص أنا أعينه شخصياً، لا أكفّ عن إعطاءه المال من جيبـــي، أردت توظيفه ليســـاعدني في الجريـــدة، لكنه لم يكتب مقالاً واحداً صـــالحاً للنشـــر حـــتى الآن، أتعتقـــد أنّ الاعتراف يحسّن من حالتي يا أبونا؟ سأل الخوري: هل ارتكبت خطيئة الجسد؟ سأل الخوري. الجسد الوحيد الذي أعرفه هو جسدي هـــذا، أجاب بيريرا. إذن اسمع يا بيريرا، ختم الأب أنطونيو، لا تضيّع وقـــتي، فالاعتراف يتطلب جهداً وتركيزاً وأنا عندي أشياء أخرى، بعد قليـــل عليّ أن أذهب إلى المرضى، سأدردش وإياك في أمورك بشـــكل عـــام، ولكن ليس في صيغة اعتراف، وإنما كأصدقاء.

جلس الأب أنطونيو إلى مصطبة في المخزن وجلس بيريرا بجانبـــه. اسمعني يا أبونا، قال بيريرا، أنا أؤمن بالله القـــدير، أتنـــاول القـــرابين

Titter: @ketab_n

المقدّسة، أتّبع الوصايا وأحاول ألا أرتكب الذنوب، وإن كنت لا أجيء إلى الكنيسة في بعض الأيام فهذا ليس لعدم إيماني بل بسبب الكسل فقط، وأعتقد أنني كاثوليكي مخلص وأحب تعاليم الكنيسة، ولكني الآن مضطرب قليلاً، بما يتعلق بعملي كصحفي، لست على علم بما يحدث في العالم، ويبدو لي أنه يوجد الكثير من الجدل على مواقف الكتّاب الكاثوليكيين الفرنسيين بما يخص الحرب الأهلية الإسبانية، أود أن تضعني على الطريق القويم يا أبونا، لأنك تعرف الأشياء وأنا أريد أن أعرف كيف أتصرف كي لا أصبح مهرطقاً.. في أي عالم تعيش يا بيريرا؟ هتف الأب أنطونيو. حسناً، حاول بيريرا أن يبرر، في الواقع قضيت أسبوعاً كاملاً في باريدي ثم إنني، في هذا الصيف، لم أشتر أية جريدة أجنبية، والجرائد البرتغالية لا تقول شيئاً، وأحصل على المستجدات من الدردشة في المقهى حصراً.

يدّعي بيريرا أنّ الأب أنطونيو نهض ووقف أمامه بوضعية أشبه بالتهديد. اسمع يا بيريرا، قال، هذه اللحظات عصيبة وعلى كل واحد منا أن يتخذ خياراته، أنا رجل كنيسة وعليّ أن أطيع الكنيسة، أما أنت حرٌّ باتخاذ خياراتك الشخصية حتى لو كنت كاثوليكياً. إذن فاشرح لي، بيريرا يتوسّل، فأنا أود أن أختار وأتّبع ما أختاره لكنني لست ضمن التيار. تمخّط الأب أنطونيو، وعقد يديه على صدره وسأل: هل تعرف قضية كهنة الباسك؟ لا، أقرّ بيريرا. لقد بدأ كل شيء مع هؤلاء الكهنة، قال الأب أنطونيو، وكانوا أكثر المسيحيين إيماناً في إسبانيا حسب رأي الجميع، حدث أنهم انضموا إلى صفّ الجمهورية بعد قصف غويرنيكا. تنفّس الأب أنطونيو كأنّ مشاعره تحرّكت وتابع: في ربيع العام الماضي، نشر فرانسوا مورياك وجاك ماريتان، وهما من أهمّ الأدباء الكاثوليكيين في فرنسا، نشرا بياناً دفاعاً عن الكهنة. مورياك!

Titter: @ketab_n

هتف بيريرا، قلت مراراً إنه علينا تحضير مرثية واردة عن مورياك، إنه رجل عظيم لكن مونتيرو روسي تعثّر في كتابتها. ومن هذا مونتيرو روسي؟ سأل الأب أنطونيو. إنه المساعد الذي عيّنته، أجاب بيريرا، الذي لم ينجح في تحضير أي مرثية لأولئك الكتّاب الكاثوليكيين الذين اتخذوا مواقف سياسية رائعة. ولماذا تريد أن تكتب مرثية عنه، سأل الأب أنطونيو، دع المسكين حيّاً، نحن بحاجة له، لماذا تريد له أن يموت؟ أوه، لست أقصد هذا، قال بيريرا، أتمنى أن يعيش مئة عام، ولكن لنفترض أنه توفي بين لحظة وأخرى، يجب أن يكون في البرتغال كلها صحيفة واحدة على الأقل تهدي روحه تحية مستحقة، وهذه الصحيفة هي لشبونيا، عموماً اعذرني يا أبونا، أكمل حديثك. حسناً، قال الأب أنطونيو، تعقّدت المسألة مع الفاتيكان، الذي صرح أنّ الجمهوريين قتلوا آلاف المتدينين، وأنّ كهنة الباسك كانوا مسيحيين براية حمراء، وأنّ الفاتيكان سيقطع علاقته معهم، وهكذا حدث، وحينها ظهر باول كلوديل، كاتب كاثوليكي شهير هو الآخر، ونشر في باريس "نشيد للشهداء الإسبان" كمقدمة شعرية لكتيّب دعائي قذر يثبت عمالته للقوميين. باول كلوديل؟ سأل بيريرا مستغرباً. تمخط الأب أنطونيو ثانية. هو بعينه، قال، أنت ما رأيك به يا بيريرا؟ صدقاً لا أعرف ما أقول، تلعثم بيريرا، اتخذ موقفاً مختلفاً مع أنه كاثوليكيّ أيضاً، لقد اتخذ خياراته إذن. كيف لا تعرف ماذا تقول يا بيريرا، هتف الأب أنطونيو، كلوديل هذا ابن عاهرة، ويؤسفني أنني في مكان مقدس وأتفوّه بهذه الألفاظ، كان عليّ أن أتفوّه بها في الساحة. وماذا بعد؟ سأل بيريرا. وبعد، تابع الخوري، قرر مجمع الرهبان الإسباني، وعلى رأسه الكاردينال غوما أسقف طليطلة، قرر أن يكتب رسالة مفتوحة لأساقف العالم كله، هل فهمت يا بيريرا، لأساقف العالم كله، كما لو أنّ

Titter: @ketab_n

أساقف العالم فاشيون مثلهم، وفحوى الرسالة تقول إنّ آلاف المسيحيين في إسبانيا حملوا السلاح تحت مسئوليتهم الشخصية ليدافعوا عن مبادئ الدين. أجل، قال بيريرا، ولكن ماذا عن الشهداء الإسبان، القتلى المتدينين؟. صمت الأب أنطونيو لوهلة ثم قال: ربما يكونون شهداء، لكنهم كانوا يتآمرون ضد الجمهورية، واعلمْ أنّ الجمهورية كانت دستورية، منتخبة من الشعب، وفرانكو قام بانقلاب عسكري، فهو بذلك خارج عن القانون. وبرنانوس، سأل بيريرا، ما شأن برنانوس بكل هذا؟ هو أيضاً كاتب كاثوليكي. فقال الخوري: هو الوحيد الذي يعرف إسبانيا حق المعرفة، لأنه عاش فيها منذ عام 1934 حتى العام الفائت، وكتب عن مجازر فرانكو المروّعة، والفاتيكان لا يمكن أن يحتمل كاتباً مثله لأنه كان شاهداً حقيقياً. أتعلم يا أبونا، قال بيريرا، فكّرت أن أنشر فصلاً أو اثنين من "يوميات خوري من الريف" على صفحة لشبونيا الثقافية، ما رأيك؟ تبدو لي فكرة حسنة، أجاب الأب أنطونيو، ولكنني لست على يقين أنهم سيسمحون بنشرها، برنانوس ليس محبوباً في هذا البلد، لأنه هاجم بأشد العبارات الألوية البرتغالية التي تدخّلت في إسبانيا للقتال جنباً إلى جنب فرانكو، والآن اعذرني يا بيريرا، عليّ أن أذهب إلى المستشفى، مرضاي بانتظاري.

نهض بيريرا وودّع الأب أنطونيو وقال له: اعذرني إن أضعت وقتك، في المرة المقبلة سآتي للاعتراف. لست بحاجة لذلك، ردّ الخوري، قبل أن تأتي حاولْ أن تقترف ذنباً ما ثم تعال، لا تضيّعْ وقتي هباء.

خرج بيريرا وصعد شارع دا امبرينسا ناثيونال بصعوبة. وعندما وصل أمام كنيسة سان ماميدا جلس إلى أحد المقاعد في الساحة الصغيرة. وأمام الكنيسة خطّ على صدره علامة الصليب، ثم فرد ساقيه

Titter: @ketab_n

وراح يتلذّذ بالهواء الرطب. رغب بشرب الليموناضة حيث كانت هنالك مقهى بالقرب منه، لكنه ردع شهوته، واكتفى بالاستراحة في الظل، ونزع حذاءه لتنتعش قدماه قليلاً. ثم مشى بخطى بطيئة نحو المكتب وهو يفكّر بذكرياته. يدّعي بيريرا أنه فكر بطفولته الماضية في بوفوا دو فارزيم، مع جدّيه، كم كانت طفولة هانئة، أو هكذا كان يعتبرها على الأقل، لكنه يرفض الحديث عن طفولته، لأنّ ليس لها أي صلة بهذه القصة، كما يدّعي، ولا بهذا النهار من أواخر أغسطس حين يضعف تأثير الصيف مما يشعره بالاضطراب.

على درج المبنى، حيّته البوابة باحترام وقالت له: صباح الخير أستاذ بيريرا، لا بريد لحضرتك هذا الصباح ولا أي اتصال هاتفي. ماذا؟ اتصال هاتفي؟ سأل بيريرا مصعوقاً، هل دخلت إلى مكتبي؟ كلا، قالت شيليستا بنبرة زهوّ، هذا الصباح جاء موظفو شركة الهاتف ومعهم وكيل تجاري، وقاموا بوصل هاتفك بحجرتي، وقالوا إنّه من الأفضل أن أحداً يستقبل المكالمات حينما لا يوجد أحد في المكتب، يقولون إنني شخص موثوق. طبعاً لن تجد هذه العصابة عميلاً موثوقاً أكثر منك، أراد أن يجيب بيريرا هكذا لكنه لم يقل ذلك. بل سأل فقط: وإن أردت الاتصال؟ عليك أن تطلب السنترال، أجابت برضا، ومنذ اليوم أنا هو السنترال لمكتب حضرتك، عليك أن تطلب الأرقام مني، لم أكن أرغب بعمل كهذا كما تعلم يا أستاذ بيريرا، فأنا أعمل طوال النهار وعليّ تحضير الطعام لأربع بيوت هنا، ولديّ الأولاد من جانب، وزوجي من جانب آخر، عندما يعود من عمله في المخفر حوالي الثانية ظهراً يكون جائعاً كالذئاب وهو متطلب جداً. رائحة القلي التي تفوح على الدرج تثبت أنه متطلب، أجاب بيريرا ولم يقل أي شيء آخر. دخل إلى المكتب وعزل وصلة الهاتف وأخرج من جيبه

Titter: @ketab_n

الورقة التي أعطته إياها مارتا مساء أمس. كان المقال مكتوباً بخط اليد، بالحبر الأزرق، بعنوان "حدث تاريخي": "منذ ثماني سنوات عام 1930 مات الشاعر الكبير فلاديمير مایاكوفسكي في موسكو. انتحر بطلقة مسدس بعد قصة حب يائسة. كان والده يعمل في مراقبة الغابات. تعرّض الشاعر للاعتقال والتعذيب مرّات ثلاث من قِبل الأمن القيصري بسبب انضمامه إلى الحزب البلشفي في مقتبل العمر. كان من كبار الدعاة لروسيا الثورية، وأحد المستقبليين الروس الذين يتميزون عن المستقبليين الإيطاليين سياسياً، قام بجولة على متن قاطرة يجوب البلاد ليلقي أشعاره الثورية في القرى، مما أوقد حماس الشعب. كان فناناً ورساماً وشاعراً ومسرحياً. لم تترجم أعماله إلى البرتغالية، ولكن من الممكن شراؤها بالفرنسية من مكتبة شارع اورو في العاصمة. تعاون مع صديقه السينمائي الكبير ايسنتشتاين في عدة أفلام. ترك لنا إرثاً وافراً في النثر والشعر والمسرح. ننعي هنا مایاكوفسكي، الداعي للديمقراطية والمناوئ الشرس للقيصرية".

شعر بيريرا بخيط عرق ينساب على عنقه، مع أنّ الطقس لم يكن حاراً جداً. لابدّ أن يرمي هذا المقال في السلة، لأنه كان في قمة الغباوة. لكنه فتح مجلد المرثيات وأدخله فيه. ارتدى سترته حين آنت ساعة العودة إلى المنزل، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

20

صدرت ترجمة الدرس الأخير لألفونس دوديه على صفحات لشبونيا ذلك السبت. مررت الرقابة النصّ بهدوء تام، واستنتج بيريرا، كما يدّعي، أنه من الممكن كتابة تحيا فرنسا في البرتغال، وأنّ الطبيب كاردوزو لم يكن محقاً. و لم يمض بيريرا حتى في هذه المرة. بيريرا لا يحبّ التوقيع، لأنه يعتبر إمضاء مدير الصفحة الثقافية على ترجمة النص بأمر غير لائق. فقد يلاحظ القرّاء أنه مدير الصفحة والعامل فيها. وهذا ما يزعجه لأنّ المسألة في الحقيقة تعود لكبريائه، كما يدّعي.

كان بيريرا راضٍ عن ترجمته للقصة، وكانت الساعة العاشرة صباحاً من يوم الأحد، وقد وصل إلى المكتب باكراً، لأنه استيقظ في وقت مبكّر جداً. بدأ بترجمة الفصل الأول من "يوميات خوري من الريف" لبرنانوس، وكان يعمل بهمة عالية. رنّ الهاتف في تلك اللحظة. كان بيريرا قد نسي أن ينزع الوصلة، فمنذ أن أصبحت البوابة سنترالاً بات يحذر منها أكثر ويتقزز من صوتها وهي تمرر المكالمات. آلو أستاذ بيريرا، قالت شيليستا، ثمة مكالمة لحضرتك، يريدونك من مصحة علاج البحر في باريدي. مصحة العلاج البحري، صحح بيريرا. أجل، شيء من هذا القبيل، قالت شيليستا، هل تريد المكالمة أم أقول إنك لست موجوداً؟ مرري المكالمة، قال بيريرا. سمع صوت من الطرف الآخر يقول: آلو، أنا الطبيب كاردوزو، أود التحدث مع الأستاذ بيريرا. ها أنذا، قال بيريرا، صباح الخير دكتور كاردوزو، أنا سعيد

Titter: @ketab_n

لسماع صوتك. وأنا أسعد يا سيدي، قال الطبيب، كيف الحال؟ هل تتابع الحمية؟ نعم، في حدود الممكن، أقر بيريرا، ولكن الأمر ليس بهذه السهولة. اسمع يا أستاذ بيريرا، قال الطبيب، سأركب القطار المتجه إلى لشبونة بعد قليل، قرأت قصة دوديه البارحة، إنها رائعة حقاً، وأرغب بالحديث عنها معك، ما رأيك أن نلتقي على الغداء؟. هل تعرف أين يقع اوركيديا كافيه؟ سأل بيريرا، إنها في شارع الكسندر هيركولانو، بعد الملحمة اليهودية. أعرفها، قال الطبيب، في أي ساعة نلتقي؟ حوالي الواحدة إذا يناسبك، أجاب بيريرا. جيد جداً، قال الطبيب، نلتقي في الساعة الواحدة، وداعاً. كان بيريرا واثقاً من أنّ البوابة سمعت كل المكالمة، ولكنه لم يهتم لهذا كثيراً، إذ لم يتفوه بما هو خطير. أكمل ترجمة الفصل الأول من رواية برنانوس، ويدّعي أنه نزع شريط الهاتف. وظلّ يعمل حتى الواحدة إلا ربعاً، ثم ارتدى السترة ووضع ربطة العنق في جيبه وخرج. عندما دخل إلى المقهى لم يكن الطبيب قد وصل بعد. وظّب بيريرا الطاولة القريبة من المروحة وجلس إليها. وطلب الليموناضة، لأنه كان ظمآن، ولكن بدون سكر. وعندما جاء النادل مع الليموناضة سأله بيريرا: ما الأخبار يا مانويل؟ الأخبار متضاربة، أجاب النادل، يبدو أنّ اليوم في إسبانيا يوجد توازن ما، القوميون يسيطرون على الشمال والجمهوريون يحققون انتصارات في الوسط، ويبدو أنّ الكتيبة الأممية الخامسة عشر تصرفت على أحسن وجه في سرقسطة، فالوسط بيد الجمهوريين، والإيطاليون الداعمون لفرانكو يتصرفون بطريقة مسيئة. ابتسم بيريرا وسأل: أنت مع من يا مانويل؟ تارة مع هذا الجانب وتارة مع الآخر، أجاب النادل، لأنّ الطرفين قويان، ولكنني لا أؤيد الكتيبة البرتغالية التي تحارب ضد الجمهوريين، فنحن لدينا جمهورية أيضاً، وقد طردنا الملك منذ عام

Titter: @ketab_n

1910، لا أفهم السبب للقتال ضد جمهورية. صحيح، وافق بيريرا. في تلك اللحظة دخل الطبيب كاردوزو. بيريرا يدّعي أنّ الطبيب بثيابه العادية بدا أصغر سناً، وهو الذي اعتاد على رؤيته بالمريول الأبيض. وكان الطبيب كاردوزو يرتدي قميصاً مخططاً وسترة فاتحة اللون ويبدو أنه يشعر بالحرارة. تبادلا الابتسامة، وتصافحا. رائعة يا أستاذ بيريرا، قال الطبيب، رائعة حقاً إنها قصة جميلة، لم أكن أظن أنّ دوديه سليط اللسان لهذه الدرجة، لقد جئت لأهنئك على الترجمة، ولكن خسارة أنك لم تمضي باسمك عليها، كم وددت أن أرى اسمك بين قوسين في آخر القصة. شرح له بيريرا بتروٍّ أنه فعل ذلك تواضعاً، لا بل كبرياءً، فهو لا يريد أن يفهم القراء أنّ هذه الصفحة الثقافية يعمل فيها من يديرها فقط، بل أراد أن يشكّل انطباعاً بأنّ الجريدة لديها كثير من المستكتبين، وأنها جريدة مهمة كالأخريات، لقد فعل ذلك من أجل لشبونيا.

طلبا السلطة البحرية، مع أنّ بيريرا كان يفضّل وجبة البيض المخفوق مع الأعشاب، لكنه لم يتشجع أن يطلبها أمام الطبيب. أعتقد أنّ الأنا الأعلى الجديد حصل على مزيد من النقاط، غمغم الطبيب. بأي معنى؟ سأل بيريرا. بمعنى أنك استطعت أن تكتب تحيا فرنسا، شرح الطبيب، حتى لو كان ذلك عبر شخص وسيط. أشعر بالرضى عمّ فعلت، أقر بيريرا ثم تابع متظاهراً بأنه على اطلاع مستمر على الأحداث: هل تعلم أنّ الكتيبة الأممية الخامسة عشر تسيطر على وسط إسبانيا؟، يبدو أنها قاتلت ببطولة في سرقسطة. لا تتوهمْ كثيراً يا أستاذ بيريرا، ردّ الطبيب، موسوليني أرسل كمية من الغواصات لفرانكو والألمان يدعمونه بالطيران، لن يقوى الجمهوريون على مقاومة هذا كله. ولكن السوفييت معهم، اعترض بيريرا، والكتائب الأممية وكل

Titter: @ketab_n

الشعوب التي تزاحمت لدخول إسبانيا نصرة للجمهوريين. أنا لا أفضّل أن نبني أوهاماً كثيرة، قال الطبيب، جئت لأقول لك إنني استلمت عرضاً من مصحة في سان مالو، وسأنطلق بعد أسبوعين. لا تتركني يا دكتور كاردوزو، أراد بيريرا أن يقول، أرجوك لا تتركني. لكنه قال: لا تتركنا يا دكتور كاردوزو، لا تترك أهلنا، هذا البلد بحاجة لأشخاص مثلك. للأسف، هذا البلد ليس بحاجة لشخص مثلي في الواقع، أجاب الطبيب، أو على الأقل أنا لست بحاجة له، أرى أنّ من الأفضل الذهاب إلى فرنسا قبل وقوع الكارثة. الكارثة، سأل بيريرا مستغرباً، أية كارثة؟ لا أعرف، أجاب الطبيب، لكنني أعتقد أنّ كارثة كبرى ستقع، ولا أريدك أن تقلق يا أستاذ بيريرا، فأنت تعمل على أناك الجديد وبحاجة للهدوء، أما أنا فسأذهب، ما أخبار أصدقائك الشبّان؟ أولئك الذين تعرفت عليهم ويعملون معك في الجريدة. واحد منهم فقط يعمل معي في الجريدة، أجاب بيريرا، لكنه لم يكتب لي مقالاً واحداً صالحاً للنشر حتى الآن، تخيّل أنه البارحة أرسل لي مقالاً عن مایاکوفسکي مستذكراً نضال هذا الثائر البلشفي، لا أعلم لماذا أستمرّ في تغطيته مادياً على مقالات من المستحيل أن تنشر، ربما لأنه يواجه المصائب، أنا واثق من هذا، حتى حبيبته تواجه المصائب وأنا مرجعهم الوحيد. أفهم أنك تساعدهما، قال الطبيب، ولكن أقل مما ترغب، ربما إذا وصل الأنا الأعلى الجديد إلى سدّة حكم الفدرالية ستفعل شيئاً أكبر يا أستاذ بيريرا، اعذرني إن كنت واضحاً معك. فقال بيريرا: لقد وظفت هذا الشاب ليكتب مرثيات مسبقة وأحداث تاريخية على المستوى الثقافي، لكنه ما برح يكتب مقالات هذيانية وثورية كأنه لا يعرف في أيّ بلد نعيش، وقد دفعت له النقود من جيبي دوماً كي لا أثقل على الجريدة وكي لا أدخل رئيس التحرير في هذه المسألة، لقد

Titter: @ketab_n

حميته وأخفيت ابن عمه الذي يبدو لي مغفلاً ويقاتل مع الكتائب الأممية في إسبانيا، ومازلت أرسل إليه المال وهو يتسكع في آلينتيخو، ماذا بوسعي أن أفعل أكثر؟ بإمكانك أن تذهب لتلاقيه، أجاب الطبيب بكل بساطة. أذهب لألاقيه، هتف بيريرا، أتبعه حتى آلينتيخو، وأرافقه بتحركاته غير القانونية، ثم أين ألاقيه، إن كنت لا أعرف حتى أين يسكن؟ حبيبته تعرف ذلك دون شك، قال الطبيب، أنا متأكد أنها تعرف ولكنها لا تقول لك لأنها لا تكنّ لك كامل الثقة يا أستاذ بيريرا، ربما بإمكانك أن تحصل على ثقتها، أن تظهر أمامها بأقل حذر ممكن، أنت لديك أنا أعلى قوي يخوض صراعاً قاسياً في هذه المعركة التي تستعر في روحك، عليك أن تستغني عن أناك الحالي وتتركه يتفقت ليلاقي مصيره. وما الذي سيبقى مني؟ سأل بيريرا، إنه كينونتي الحقيقية، ذكريات شبابي وحياتي الماضية وأيامي في كويمبرا وزوجتي وعملي كصحفي في جريدة معتبرة، ما الذي سيبقى مني؟ عليك أن تقيم الحداد، قال الطبيب، إنه تعبير فرويدي، اعذرني، أنا أوفّق بين النظريات وأجمع من هنا ومن هناك، أنت بحاجة للحداد كيّ تودع حياتك المنصرمة، وبحاجة لأن تعيش الحاضر، فلا أحد بوسعه أن يعيش مثلك وهو يفكّر في الماضي فقط. وذكرياتي، سأل بيريرا، وما حييته؟ ستبقى مجرد ذكريات، أجاب الطبيب، دون أن تقتحم حاضرك بهذا الأسلوب العنيف، أنت ماتزال تعيش في إطار الماضي، أنت هنا كما كنت في كويمبرا منذ ثلاثين عاماً وربما ما تزال زوجتك حية أيضاً، ستصبح عبداً لذكرياتك إن تابعت على هذا المنوال، وربما ينتهي بك الأمر إلى أن تخاطب صورة زوجتك مثلاً. مسح بيريرا فمه بالمنديل وأخفض صوته: في الحقيقة أنا أفعل هذا منذ زمن يا دكتور. فابتسم الطبيب قائلاً: لقد رأيت صورة زوجتك في الغرفة بالمصحة، وتوقّعت أنّ هذا الرجل

Titter: @ketab_n

مايزال يكلم صورة زوجته ذهنياً، بمعنى أنه لم يبدأ الحداد بعد، هذا ما فكرت به حقاً يا أستاذ بيريرا. أنا لا أكتفي بمخاطبتها ذهنياً، أضاف بيريرا، بل أخاطبها جهاراً، أحدثّها بكل أشيائي، وأشعر أنّ الصورة تجيبني. هذا مجرّد خيال من صنع أناك الأعلى، قال الطبيب، عليك أن تتحدث مع شخص حيّ عن أشياء كهذه. ولكن ليس عندي من أتحدث معه، اعترف بيريرا، أنا وحيد، لديّ صديق يدرّس في جامعة كويمبرا، ذهبت لزيارته في الحمة في بوساكو ورجعت إلى هنا في اليوم الثاني لأنني لم أعد أحتمله، جميع الأساتذة الجامعيون يؤيدون الحاكم وهو ليس استثناء عنهم، ويوجد رئيس التحرير لكنه يشارك في كل العروض الرسمية بذراع ممدودة كالرمح، لا يعقل أن أفضفض همومي لشخص مثله، والبوابة شيليستا في مبنى القسم الثقافي، عميلة ومخبرة عند الأمن، والآن تتنصت حتى على مكالماتي، وقد أضيف مونتيرو روسي، الشاب الذي يكتب المقالات التي لا تنشر، لكنه هارب دوماً. اذهب وابحث عنه إذن، ردّ الطبيب، كما قلت من قبل، ابحث عنه يا أستاذ بيريرا، إنه شاب، إنه المستقبل، وأنت بحاجة لأن ترافق شاباً حتى لو أنّ مقالاته لا تنشر على صفحات جريدتكم، كفّ عن مرافقة الماضي وحاول أن ترافق المستقبل. ما أجمل هذه العبارة، قال بيريرا، مرافقة المستقبل، لم تكن لتخطر على بالي أبداً. طلب بيريرا ليموناضة بدون سكر وتابع: وأنت أيضاً أيها الطبيب من قائمة أصدقائي، فأنا أحب الحديث معك وأود أن تستمر علاقتنا في المستقبل أيضاً، لكنك سوف ستتركنا وتتركني هنا في العزلة، ولا يبقى لي سوى صورة زوجتي. شرب الطبيب كاردوزو القهوة التي أحضرها مانويل. بوسعنا التحدث إذا جئت لزيارتي في سان مالو، قال الطبيب، هذا البلد لا يناسبك لأنه مليء بالذكريات، حاول أن ترمي أناك الأعلى في مجاري

Titter: @ketab_n

الصرف واعط فسحة للأنا الجديد، قد نلتقي في مناسبات أخرى، وستكون مختلفاً تماماً.

أصر الطبيب أن يدفع الحساب فوافق بيريرا على الرحب كما يدّعي، فمحفظته كانت شبه خاوية بعد أن أعطى مارتا النقود في الأمس. نهض الطبيب وصافح بيريرا. إلى اللقاء قريباً يا أستاذ بيريرا، أتمنى أن أراك في فرنسا أو في بلد آخر من هذا الكوكب الفسيح، وأوصيك أن تعطي مجالاً لأناك الجديد، دعه يتكوّن، إنه في مخاض ويحاول أن يولد، إنه بحاجة لإثبات نفسه.

نهض بيريرا بدوره ليصافح الطبيب. نظر إليه وهو يبتعد، وأحس بطيف من الحنين، كأنّ هذا الوداع ما بعده لقاء. تذكر كيف قضى أسبوعاً في مصحة العلاج البحري في باريدي، تخللته النقاشات المفيدة مع الطبيب كاردوزو، وتذكر وحدته أيضاً. وعندما خرج الطبيب من الباب وغاب في الزحام شعر بأنه وحيد حقاً، ورأى أنّ الوحدة هي اللحظة المناسبة ليقيس المرء ذاته مع الأنا الأعلى الذي يسعى لفرض سلطته على تجمّع الأرواح. غير أنّ هذا لم يزوّد بيريرا بالطمأنينة، بل جعله يكابد موجة حنين هائجة لأمر مجهول، حنين لحياة ماضية وحياة قادمة، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

21

يدّعي بيريرا أنه نهض على رنين الهاتف في صباح اليوم التالي. وكان مايزال يرى الحلم السعيد والطويل الذي استمر الليل كله، ولا ينوي الكشف عنه لأن ليس له صلة بهذه القصة، على حدّ زعمه.

عرف بيريرا صوت الآنسة فيليبا، سكرتيرة رئيس التحرير، على الفور. صباح الخير يا أستاذ بيريرا، قالت فيليبا بصوتها العذب، أمرر لك السيد رئيس التحرير. استيقظ بيريرا أخيراً وجلس على حافة السرير. صباح الخير أستاذ بيريرا، أنا رئيس التحرير. صباح الخير يا سيدي، أجاب بيريرا، هل قضيت إجازة سعيدة؟ بل رائعة، أجاب رئيس التحرير، إنّ حمة بوساكو مكان رائع حقاً، لكنني أظن أنني قلت لك هذا من قبل، لقد تسامعنا من قبل إن لم أخطئ. آه طبعاً، قال بيريرا، تسامعنا عندما صدرت قصة بلزاك، اعذرني لكنني استيقظت لتوّي وأفكاري ليست واضحة. يحدث غالباً أن لا تكون الأفكار واضحة، قال رئيس التحرير بحدّة معينة، وأعتقد أنّ هذا الأمر يحدث معك غالباً يا أستاذ بيريرا. في الواقع، أجاب بيريرا، أتعرض لهذا الأمر في الصباح خصوصاً، لأنني أعاني من انخفاض الضغط. ضع قليلاً من الملح تحت لسانك، كان رئيس التحرير ينصحه، إنها طريقة جيدة لتثبيت الضغط، ولكنني لم أتصل بحضرتك لأنصحك بكيفية معالجة الضغط ومشاكله يا أستاذ بيريرا، بل المشكلة أنني لا أراك مطلقاً في فرع الجريدة العام، وتبقى متوارياً في ذلك المكتب في شارع رودريغو

Titter: @ketab_n

دا فونسيكا ولا تعرض مشاريعك وتتصرف من رأسك بكل شـــيء. معذرة يا سيدي، قال بيريرا، لكنّ حضرتك أعطيتني الضوء الأخضـــر، وأوكلتني مسئولية الصفحة الثقافية بالكامل، كما لو أنك قلت لي بأن أتصرف من رأسي بالنتيجة. لا أتحدث عن هذا، تابع رئيس التحريـــر، ولكن ألا يبدو لك من الواجب أن تجتمع بـــي من فترة لأخرى؟ حقاً إنّ الاجتماع مفيد بالنسبة لي أيضاً، قال بيريرا، ومن الصعب أن أديـــر العمل الثقافي بمفردي، وحضرتك قلت لي إنك لا تريد الانشغال بأمور الصفحة الثقافية. والموظف، سأله، ألم تقل لي إنك عينت موظفاً؟ أجل، بيريرا يكذب، ولكن مقالاته ماتزال ركيكة، ولم يمت أي كاتب مهـــم إلى الآن، ثم إنه شاب صغير وقد طلب مني إجازة ليذهب إلى البحر ولم أره منذ شهر تقريباً. ولمَ لا تعزله يا أستاذ بيريرا؟ سأله، ماذا تنتظر من موظف لا يعرف كتابة مقال ومولع بالإجازات؟ أفكر في منحه فرصة أخرى، رد بيريرا، عليه أن يتعلم المهنة وحسب، وهو مجرد فـــتى بـــلا خبرة، ولابدّ أن ينضبط فيما بعد. في تلك اللحظة من المكالمة، تدخّلت فيليبا بصوتها الناعم: اعذرني سيدي، ثمة اتصال من الحكومـــة المدنيـــة ويبدو طارئاً. حسناً، أستاذ بيريرا، قال، سأتصل بك بعد ثلث ســـاعة تقريباً، عدّلْ مزاجك وضعْ قليلاً من الملح تحت لسانك. أتصل بكم إن أردت، قال بيريرا. لا، أجابه، سأنهي ما عندي وأتصل بـــك ثانيـــة، وداعاً.

قام بيريرا واستحم على عجل. حضّر فنجان القهوة وأكل قطعـــة بسكويت مالحة. ثم لبس ثيابه وذهب إلى المدخل. اتصل بـــي رئـــيس التحرير، قال للصورة، أخاله يلتفّ ويناور ولم يدخل في الموضوع بعد، لم أفهم ما الذي يريده مني، لكنه لابدّ أن يدخل في الموضوع، ما رأيك أنت؟ أرسلت الصورة تلك الابتسامة البعيدة فختم بيريرا: صبراً، سنرى

Titter: @ketab_n

ماذا يريد هذا الرجل، أنا لا أستحق التوبيخ على شيء، على الأقل بما يخص الجريدة، إذ أنني أترجم قصص فرنسية من القرن التاسع عشر، هذا كل ما أفعله، لا بأس.

جلس على الطاولة وفكر أن يبدأ بكتابة زاوية عن ريلكه، لكنه في الحقيقة لم يرغب بكتابة شيء عنه، ذلك الرجل المفرط في الأناقة والمتعجرف الذي ارتاد الطبقة العليا من المجتمع، فليذهب إلى الجحيم، قال بيريرا في نفسه. بدأ يترجم بعض الجمل من رواية برنانوس، كانت الرواية معقدةً أكثر مما تصور، وهو لايزال في فصلها الأول، فتمنّى أن تكون الصعوبة في البداية فقط. رنّ الهاتف في تلك اللحظة. صباح الخير أستاذ بيريرا، قالت الآنسة فيليبا بصوتها الساحر، أمرر إليك السيد رئيس التحرير مجدداً. انتظر بيريرا بضعة ثواني ثم باغته صوت الرجل فظاً ومتقطعاً: حسناً أستاذ بيريرا عم كنا نتحدث؟. كنت تقول لي إنني مغلق على نفسي في القسم الثقافي يا سيدي، قال بيريرا، لكنه المكتب الذي أعمل به في مجال الثقافة، ولا أدري ماذا أفعل إن جئت إلى الفرع العام، لا أعرف أحداً من الصحفيين، وأنا قد عملت في التحقيقات لسنوات في جريدة أخرى، لكن حضرتك آثرت أن تسلّمني قسم الثقافة، وليس عندي أيّ تواصل مع الصحفيين السياسيين، لا أعرف ماذا أفعل عندكم في الفرع العام. هل فرّغت ما عندك يا أستاذ بيريرا؟ سأله رئيس التحرير. معذرةً من سيادتك، قال بيريرا، لم أكن أريد التفريغ، أردت أن أفصح عن الأسباب لا غير. حسناً، قال رئيس التحرير، أود أن أطرح عليك سؤالاً بسيطاً، لماذا لا تشعر أبداً بالضرورة للمجيء والتحدث معي بما أنني رئيس التحرير؟ لأنك قلت لي إنّ الثقافة لا تعنيك يا سيدي، أجاب بيريرا. اسمع يا أستاذ بيريرا، قال له، لا أعلم ما إذا كانت أذنيك من طين أو عجين أم أنك لا تدرك

Titter: @ketab_n

ما أمليه عليك، أنا أقوم بدعوتك إلى مكتبي، هل تفهم؟ علماً أنه واجبك أن تأتي لتطلب مقابلتي من حين لآخر، ولكن إذا وصلنا إلى هذا الحد، وحضرتك مصاب بموهبة الفهم، فأنا من يطلب مقابلتك. أنا تحت تصرفكم، قال بيريرا، بشكل كامل. حسناً، أنهى كلامه، تعال إلى الجريدة اليوم في الخامسة عصراً إذن، إلى اللقاء.

لاحظ بيريرا أنه كان يتعرق بشكل خفيف، فغيّر قميصه الذي ابتلّ من عند إبطيه، وفكر أن يذهب إلى المكتب لينتظر هناك حتى الخامسة. ثم قال لنفسه إنّه ليس ثمة ما يفعله في المكتب، كان سيرى شيليستا ويفصل الهاتف، من الأفضل البقاء في المنزل. عاد إلى الطاولة ليكمل الترجمة. كانت رواية معقدة وبطيئة جداً بالتأكيد، ومن يدري ما الذي سيفكر به قرّاء لشبونيا إذا قرأوا الفصل الأول. ورغم هذا كله مضى إلى الأمام وترجم صفحتين. وعلى ساعة الغداء أراد أن يحضّر شيئاً ما، لكن البرّاد كان فارغاً. يدّعي بيريرا أنه فكر أن يأكل شيئاً في اوركيديا كافيه بوقت متأخر قليلاً ثم يذهب إلى الجريدة. ارتدى البدلة الفاتحة وربطة العنق السوداء وخرج. ركب في الترام حتى تيريرو دو باسو وآخر إلى شارع الكسندر هيركولانو. وعندما دخل إلى المقهى كانت الساعة حوالي الثالثة وكان النادل يرتّب الطاولات. تفضل أستاذ بيريرا، قال مانويل باحترام، لدينا دائماً ما نقدّمه لحضرتك، أتخيل أنك لم تتناول الغداء بعد، ما أصعب حياة الصحفيين. فعلاً، أجاب بيريرا، خصوصاً الصحفيين الذين لا يعرفون شيئاً في هذا البلد كالآخرين، ما الأخبار يا مانويل؟ يبدو أن السفن البريطانية تدمرت على سواحل برشلونة، أجاب مانويل، وأنّ الغواصات الإيطالية لاحقت سفينة ركاب فرنسية حتى داردانيللي، كانت الغواصات إيطالية، إنّ الغوص من اختصاص الطليان. طلب بيريرا ليموناضة بدون سكر وبيض مخفوق

Titter: @ketab_n

مع الأعشاب. جلس قرب المروحة، وكانت المراوح مطفأة ذلك اليوم. أطفأنا المراوح، قال مانويل، فالصيف قد انقضى أخيراً، هل سمعت العاصفة هذه الليلة؟ لا لم أسمع، أجاب بيريرا، لقد نمت بعمق، ولكنني مازلت أشعر بالحر. أشعل مانويل المروحة لأجله وأحضر له الليموناضة. وقليلاً من النبيذ أستاذ بيريرا، متى تشرّفني بطلب النبيذ؟ النبيذ ليس صحياً لقلبي، أجاب بيريرا، هل لديك صحيفة الصباح؟ أحضر مانويل له الجريدة. العنوان العريض كان "نحت رملي على شواطئ كاركافيلوس. في المعرض، وزير البروباغاندا الوطنية يهنأ الفنانين الواعدين". كانت هناك صورة ضخمة في وسط الصفحة تظهر أعمال الفنانين الشباب على الساحل: حوريات، قوارب، سفن شراعية وحيتان. قلب بيريرا الصفحة. قرأ في الصفحة الثانية: مقاومة موفقة من الكتيبة البرتغالية في إسبانيا. الزاوية تقول: "جنودنا يسطّرون المجد في معركة أخرى بمساعدة الغواصات الإيطالية عن بعد". لم يعد لبيريرا رغبة في قراءة المقال فألقى الجريدة على الكرسي. أنهى طعامه وشرب ليموناضة أخرى بدون سكر. ثم دفع الحساب، نهض، لبس السترة التي نزعها من قبل ومشى على الأقدام نحو الفرع العام لجريدة لشبونيا. وعندما وصل هناك كانت الساعة الخامسة إلا ربعاً. يدّعي بيريرا أنه دخل إلى مقهى، وطلب مشروباً روحياً. وكان متأكداً أنه يؤثر على قلبه، لكنه لم يأبه. ثم صعد سلالم المبنى العتيق التي توجد فيه جريدة لشبونيا وحيّا الآنسة فيليبا. سأذهب لإخطاره بمجيئك، قالت السكرتيرة. لا داعي، قال بيريرا، سأدخل لوحدي، لقد أعطاني موعداً في الساعة الخامسة، وها نحن في الخامسة تماماً. طرق على الباب وسمع صوت رئيس التحرير يقول: ادخل. عقد بيريرا أزرار بدلته ودخل. كان رئيس التحرير قد غيّر لون جلده إلى البرونزي بعد حمّام شمسي

Titter: @ketab_n

في حديقة الحمة طبعاً. ها أنذا يا سيدي، قال بيريرا، تحت تصرفكم للحديث بكل شيء. ويبقى كل شيء قليلاً يا أستاذ بيريرا، قال رئيس التحرير، لم نلتق منذ شهر. التقينا في الحمة، قال بيريرا، وكنت تبدو راض عن الأداء. كنا حينها في إجازة، قاطعه، وليس من المستحسن الحديث عن العمل خلالها. جلس بيريرا إلى الكرسي مقابل المكتب. أمسك رئيس التحرير بقلم رصاص وراح يدوّره على سطح المكتب. أستاذ بيريرا، قال، أود أن أرفع الكلفة معك إن سمحت حضرتك بذلك. كما ترغب سيدي، أجابه. اسمع يا بيريرا، قال رئيس التحرير، نحن نعرف بعضنا منذ مدة وجيزة، منذ أن تأسست هذه الجريدة، ولكنني أعرف أنك صفحي خبير، عملت حوالي الثلاثين عاماً في نقل الأخبار، وتعرف الحياة جيداً وأنا متأكد أنك ستفهمني. سأفعل ما بوسعي، قال بيريرا. حسناً، تابع، لم أكن أتوقع منك هذا الشيء الأخير. ماهو؟ سأل بيريرا. مديح فرنسا، أجابه، لقد أحدث مزاجاً سيئاً في الأوساط المهمة. أي مديح لفرنسا يا سيدي؟ سأل بيريرا باستغراب. بيريرا، صاح رئيس التحرير، لقد نشرت قصة لألفونس دوديه يتحدث فيها عن الحرب ضد الألمان وانتهت بهذه العبارة: تحيا فرنسا. إنها قصة من القرن التاسع عشر، قال بيريرا. أجل، أكمل رئيس التحرير، لكنه يتحدث عن حرب ضد الألمان، ولا يعقل أن تتجاهل تحالفنا مع ألمانيا. حكومتنا لم تتحالف مع ألمانيا، اعترض بيريرا، على الأقل رسمياً. هيا يا بيريرا، ردّ رئيس التحرير، حاولْ أن تستخدم عقلك، إن لم يكن هناك تحالف فهناك استلطاف كبير على الأقل، نحن نفكر مثل ألمانيا، في السياسة الخارجية والداخلية، ونساعد القوميين الإسبان كما تفعل ألمانيا. ولكن الرقابة لم تقل شيئاً، بيريرا يدافع عن نفسه، لقد مرّت القصة بكل هدوء. في الرقابة يوجد الغشماء، قال

Titter: @ketab_n

رئيس التحرير، جهلة وأميون، حتى لو كان مدير الرقابة رجل ذكي - إنه صديقي - لكنه لا يستطيع أن يقرأ كل مسودات الصحف البرتغالية، أما الآخرون موظفون، رجال شرطة فقراء يتقاضون راتباً كي لا يمرروا كلمات محرضة مثل شيوعية واشتراكية، لا يمكنهم أن يفهموا قصة لدوديه، نحن علينا أن نراقب أنفسنا. أنا في الحقيقة عندي من يراقبني، يدّعي بيريرا أنه قال ذلك. اشرح أكثر، سأله، ماذا تقصد بهذا؟ أقصد أنه يوجد سنترال في المكتب، قال بيريرا، لم أعد أستلم المكالمات مباشرة، تمرّ كلها عبر شيليستا بوابة المبنى. هذا يحدث في كل الأقسام، ردّ رئيس التحرير، لابدّ أن يكون هنالك من يستلم المكالمة بدلاً عنك في حال غيابك. أجل، قال بيريرا، لكن البوابة مخبرة لدى الأمن والشرطة وأنا على يقين من هذا. هيا يا بيريرا، قال ئيس التحرير، الأمن يحمينا، يسهر لراحتنا، عليك أن تكون ممتناً. أنا لا أمتن أحداً يا سيدي، أجاب بيريرا، أنا أمتن مهنيّتي وذكرى زوجتي فقط. علينا أن نمتن جميعنا للذكريات الجميلة، وافق على كلامه، ولكن عليك أن تمرر الصفحة الثقافية إليّ أولاً قبل أن تنشرها، هذا ما أطلبه منك. ولكنني قد أخبرتكم أنها قصة وطنية، أصر بيريرا، وحضرتكم سمحتم لي بنشرها مؤكداً أننا بحاجة للوطنية في هذه الأيام. أشعل رئيس التحرير سيجارة وحكّ رأسه. نحن بحاجة لوطنية برتغالية، قال، لا أعرف إن كنت تركّز معي يا بيريرا، وطنية برتغالية، وأنت لا تنشر سوى القصص الفرنسية، ونحن لا نحب الفرنسيين، قراؤنا بحاجة لصفحة ثقافية برتغالية، وفي البرتغال لديك العشرات من الكتّاب وبوسعك أن تختار واحداً منهم، حتى من القرن التاسع عشر، اختر مثلاً قصة لإيكا دا كوروز الذي تكلّم عن البرتغال كثيراً، أو لكاميلو كاستيلو برانكو الذي غنّى للحب وكانت لديه حياة شيّقة قضاها بين الحب والسجون، لشبونيا ليست

Titter: @ketab_n

جريدة متواطئة مع الخارج، وأنت بحاجة لأن تجد جذورك وأن تعـــود إلى أرضك كما يقول الناقد بورابوتاس. لا أعرف من يكون، أجـــاب بيريرا. إنه ناقد وطني، شرح رئيس التحرير، يكتب في جريدة تنافسنا، ويقول إنّ على الكتاب البرتغاليين أن يعودوا إلى أرضهم. أنا لم أهجـــر البرتغال يوماً، قال بيريرا، ومازلت مغروساً في هذه الأرض كالوتـــد. حسناً، قال له، ولكن عليك أن تستشيرني في كل مرة قبل أن تبـــادر، هل فهمت يا بيريرا؟ فهمت كلياً، قال بيريرا وحلّ الـــزر الأول مـــن السترة. حسناً، قال رئيس التحرير، أعتقد أنّ لقاءنا انتهى، ويسعدني أن تكون بيننا علاقة جيدة يا بيريرا. بالتأكيد، أجابه بيريرا، وطلب الإذن بالمغادرة.

عندما خرج كانت الرياح العاتية تثني قمم الأشجار. سار بيريـــرا مشياً على الأقدام، ثم توقف ليطلب سيارة أجرة. وفكـــر بالـــذهاب لتناول العشاء في اوركيديا كافيه، لكنه غيّر رأيه وتوصّل إلى أنّ الأفضل أن يعود إلى البيت ويشرب الحليب بالقهوة. لكن سيارات الأجـــرة لم تكن تمر لسوء الحظ، فتوجّب عليه الانتظار نصف ساعة، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

22

يدّعي بيريرا أنه بقي في المنـــزل في اليوم التالي. نهض متـــأخراً، تناول الفطور ووضع رواية برنانوس جانباً، لأنها لم تكن لتصدر علـــى صفحات لشبونيا. فتّش في المكتبة فعثر على الأعمال الكاملة لكـــاميلو كاستيلو برانكو. اختار قصة بالصدفة وبدأ يقـــرأ صـــفحتها الأولى. وجدها جلفة ولا تتمتع بالسلاسة والسخرية الفرنسية، وكانت مملـــة مسرفة في الرومنسية ومليئة بالمشاكل ومشحونة بالمآسي. ضجر بيريرا مبكراً، وأراد أن يتحدث مع صورة زوجته، لكنه أجّل المحادثة لوقـــت لاحق. فقام ليحضّر المقالي بدون الأعشاب المنكهة، وأكلـــها كلـــها وذهب لينام. غفا بسرعة ورأى أحلاماً سعيدة. ثم نهض وجلـــس إلى الديوان ينظر من النافذة. كانت الشرفة تطلّ على نخيل الثكنة القريـــة وفي كل لحظة يصدر منها طنين البوق. لم يكن بيريـــرا علـــى درايـــة بدلالات البوق لأنه لم يؤد خدمة العلم، فكان يعتبرها رسائل متضاربة. راح يحدّق بسعف النخيل كيف تتحرك في الرياح، ما قاده إلى التفكير في طفولته. قضى وقتاً طويلاً من الظهيرة هكذا، وهو يفكر في طفولته، لكنه لا يحب الحديث عن تفاصيل هذه الذكرى، إذ ليس لها شأن بهذه القصة، كما يدّعي.

رنّ جرس البناية حوالي الرابعة عصراً، اهتز بيريرا في غفلته لكنه لم يتحرك. واستغرب أن يضرب أحدهم جرس البناية في ذلك الوقـــت، فظن أنّ الخادمة قد عادت من سيتوبال، ربما خضعت أختها للعمليـــة

Titter: @ketab_n

قبل الموعد المنتظر. رنّ ذلك الجرس مجدداً، بإصرار، رنتين طـــويلتين. فنهض بيريرا وفتح باب المبنى من عنده. نظر إلى الدرج المعتم، وسمـــع صرير الباب يُغلق على مهل، تلاه صـــوت خطـــىً تصـــعد الـــدرج مستعجلة. و لم يستطع بيريرا أن يميّز هوية الشخص عندما وصـــل إلى الفناء، فالظلمة كانت حالكة وعينيه لم تكن تبصران جيداً بشكل عام.

مرحباً أستاذ بيريرا، سمع بيريرا صوتاً مألوفاً، هذا أنا، هل بوسعي الدخول؟ كان مونتيرو روسي، أدخله بيريرا وأغلق الباب على الفـــور. توقّف مونتيرو روسي في المدخل، كان يرتدي قميصاً قصير الكمـــيّن ويحمل في يده حقيبة صغيرة. اعذرني يا أستاذ بيريرا، قـــال مـــونتيرو روسي، سأشرح لك كل شيء لاحقاً، هل يوجد أحـــد في البنايـــة؟، الخادمة في سيتوبال، قال بيريرا، المستأجرون في الطابق الأعلى تركـــوا الشقّة وانتقلوا إلى اوبورتو. هل تعتقد بأنّ أحداً ما رآني؟ سأل مونتيرو روسي بقلق. كان يتصبب عرقاً ويتلعثم بكلامه. لا أظن ذلك، قـــال بيريرا، ولكن ماذا تفعل هنا ومن أين أتيت؟ سأشرح لك لاحقاً، قـــال مونتيرو روسي، أنا منهك وبحاجة لحمّام وقميص نظيف الآن. رافقـــه بيريرا إلى الحمّام وأعطاه قميصاً نظيفاً، قميصه ذا اللون الترابـــي. قـــد يكون فضفاضاً، قال، ولكن هذا الموجود. وبينما كان مونتيرو روسي يستحم، ذهب بيريرا إلى المدخل ووقف أمام صورة زوجته. يدّعي أنه أراد أن يخبرها بما حدث، أي أنّ مونتيرو روسي دخل بغتة إلى بيته مثلاً وأشياء أخرى أيضاً. لكنه لم يقل شيئاً، بل أجّل المحادثة لوقت لاحـــق وعاد إلى الصالة. خرج مونتيرو روسي من الحمّـــام بقمـــيص بيريـــرا الفضفاض الذي نفخ الشاب النحيل. شكراً يا أستاذ بيريرا، قال، أريد أن أروي لك أشياء كثيرة ولكنني متعب جداً، أنا بحاجة لقيلولة. قـــاده بيريرا إلى غرفة النوم ووضع غطاء قطنياً على السرير. استلق هنا، قـــال

Titter: @ketab_n

له، وانـــزع حذاءك، لا تنم بالحذاء لأنّ الجسم لا يستريح كلياً هكذا، وكن مطمئناً، سأيقظك أنا في ما بعد. استلقى مونتيرو روسي وأغلـــق بيريرا الباب وعاد إلى الصالة. وضع جانباً قصص كـــاميلو كاســـتيلو برانكو، وأخذ رواية برنانوس ثانية وبدأ بإكمال ترجمة ما تبقّـــى مـــن الفصل الأول. وقال في نفسه إنه قد يصدرها في كتاب إن لم تنشـــرها لشبونيا، لا بأس، سيكون لدى البرتغاليين كتاباً جديداً يقرؤونه علـــى الأقل، وهذا كتاب جديٌّ وأخلاقيّ ويتحدث عن مشـــاكل عميقـــة ويسعى لعلاج ضمير القارئ.

في الثامنة مازال مونتيرو روسي نائماً. دخل بيريـــرا إلى المطـــبخ، خفق أربع بيضات، وسكب معلقة من الخردل ونفحة من الزعتر البري ونبتة المردقوش. كان ينوي أن يحضّر أفضل طبق من البيض المخفوق مع الأعشاب المنكهة، إذ فكّر أنّ الشابّ يتضور جوعاً. وظّـــب المائـــدة لشخصين في الصالة، وجهّز شمعتين ووضع منديلين أبيضين، وصحنين من نوع كالداس دا راينخا التي أهداه إياها سيلفا بمناسبة زواجـــه. ثم ذهب ليوقظ مونتيرو روسي، لكنه دخل إلى الغرفة بهدوء لأنه لم يكـــن يودّ إيقاظه. كان الشاب يغطّ في نومه على السرير وأحد ذراعيه ممدود في الفراغ. ناداه بيريرا باسمه، لكنه لم يستيقظ. فحرّك بيريرا ذراعه وقال له: مونتيرو روسي، حان وقت العشاء، إذا واصلت النوم فلن تستطيع النوم ليلاً، ومن الأفضل أن تأكل شيئاً ما. فوقع مونتيرو روســـي مـــن السرير فزعاً. اطمئن، قال له، أنا الأستاذ بيريرا، أنت هنـــا في مـــأمن. ذهبا إلى الصالة وأشعل بيريرا الشمعتين. وبينما كان يطهو، أعطاه مـــا تبقّى من اللحم المعلّب في الثلاجة، وسأله من المطبخ: ما الذي جـــرى يا مونتيرو روسي؟ شكراً، أجابه، شكراً للاستضافة يا أستاذ بيريـــرا، وشكراً للنقود التي أرسلتها لي مع مارتا. حمل بيريرا البيض إلى المائـــدة

Titter: @ketab_n

وعقد المنديل على عنقه. إذن يا مونتيرو روسي، سأله، ما الذي جرى؟ لكن مونتيرو روسي هجم على الطعام كأنه لم يأكل منذ أسبوع. على رسلك، سوف تختنق، قال بيريرا، كل بهدوء، يوجد الجبن أيضاً، احك لي. مضغ مونتيرو روسي اللقمة وقال: اعتقلوا ابن عمي. أين، سأل بيريرا، في النزل الذي أمّنته فيه؟ كلا، أجاب مونتيرو روسي، اعتقلوه في آلينتيخو بينما كان يحاول أن يجنّد شبّان المدينة، أما أنا نجوت بأعجوبة. والآن؟ سأل بيريرا. والآن أنا ملاحق يا أستاذ بيريرا، أجاب مونتيرو روسي، أعتقد أنهم يبحثون عني في كل البرتغال، ركبت الحافلة مساء أمس، ووصلت إلى باريرو، ثم أخذت قارباً من كايس دي سودريه حتى هنا وجئت على الأقدام لأني أفلست. هل يعلم أحد أنك هنا؟ سأل بيريرا. لا أحد، أجابه، ولا حتى مارتا، بل عليّ أن أتصل بها على الأقل وأخبرها أنني في مأمن، فحضرتك لن تطردني أليس كذلك يا أستاذ بيريرا؟ بوسعك أن تبقى هنا قدر ما تشاء، أجاب بيريرا، على الأقل حتى منتصف سبتمبر، حتى تعود الخادمة بيدادا، بوابة هذا المبنى، إنها امرأة موثوقة، لكنها تبقى بوابة والبوابة تتحدث مع البوابات الأخريات، ولن نستطيع أن نعتّم على وجودك. حسناً، قال مونتيرو روسي، من الآن حتى الخامس عشر من سبتمبر سأجد مكاناً آخر، ربما أتحدث الآن مع مارتا. اسمع يا مونتيرو روسي، قال بيريرا، دع مارتا الآن، مادمت في بيتي لن تتواصل مع أحد، كن مطمئناً واسترح. وأنت كيف تقضي أيامك يا أستاذ، سأل مونتيرو روسي، هل مازلت تكتب المرثيات وزوايا الأحداث؟ بعض الشيء، أجاب بيريرا، كانت مقالاتك كلها غير قابلة للنشر، حفظتها في مجلد في المكتب، لا أعرف لَمَ لم ألقها في سلة المهملات. حان الوقت لأعترف لك بشيء، غمغم مونتيرو روسي، اعذرني إن أخبرتك بالأمر متأخراً، لم تكن كل تلك المقالات

Titter: @ketab_n

من بنات أفكاري. ماذا يعني؟ سأل بيريرا. في الحقيقة، ردّ الشاب، مارتا ساعدتني بها كثيراً، ووضعت الأفكار الأساسية. يبدو في الأمر قلّة أمانة، رد بيريرا. لا أعلم إلى أيّ حد، قال الشاب، هل تعلم أنّ القوميين الإسبان يهتفون "عاش الموت"، وأنا لا أجيد الكتابة عن الموت، أنا أحب الحياة يا أستاذ بيريرا، و لم أكن قادراً على كتابة المرثيات والتحدث عن الموت بمفردي، حقاً لست بقادر. أفهمك، يدّعي بيريرا أنه أجاب، وحتى أنا لست بقادر على الكتابة عن الموت.

هبط الليل وأعطى الشمع نوراً خافتاً. لا أعرف لماذا أفعل كل هذا لأجلك، قال بيريرا. ربما لأنك رجل طيب، أجاب مونتيرو روسي. هذا تبرير سطحي، رد بيريرا، العالم مليء بالأناس الطيبين الذين لا يبحثون عن المصائب. لا أعرف إذن، قال مونتيرو روسي. المشكلة أنني لا أعرف السبب أنا أيضاً، قال بيريرا، سألت نفسي كثيراً في الأيام الفائتة، قد يكون من الأفضل أن أتوقّف عن ذلك. حمل بيريرا مشروباً روحياً يحتوي على حبّات الكرز إلى المائدة وشرب مونتيرو روسي كأساً كاملاً. أما بيريرا فأخذ كرزة واحدة مع قليل من المشروب، لأنه كان يخشى أن يدمّر الحمية.

احك لي ما الذي حدث معك، سأل بيريرا، ماذا كنت تفعل في آلينتيخو حتى الآن؟ لقد تجوّلنا في المنطقة كلها، أجاب مونتيرو روسي، وتوقفنا في الأماكن الآمنة وفي أماكن أخرى تزخر بالروح الثورية. معذرةً، قال بيريرا، لا يبدو لي ابن عمك بالشخص المناسب، لقد رأيته مرة واحدة لكنه كان يبدو مغفلاً بعض الشيء، بل بليداً بالأحرى، ثم إنه لا يتكلم البرتغالية على الإطلاق. أجل، قال مونتيرو روسي، لكنه في الحياة العادية يعمل كطبّاع، ويعرف كيف يتعامل مع الوثائق، لا يوجد من هو أفضل منه في تزوير جواز السفر. كان عليه أن يزوّر

Titter: @ketab_n

جواز سفره جيداً من باب أولى، قال بيريرا، لديه جواز سفر أرجنتيني وكان ظاهراً من بُعد أميال أنه ليس كذلك. برونو لم يزوّر جوازه، اعترض الشاب، أعطوه إياه في إسبانيا. المهم؟ سأل بيريرا. حسناً، قال مونتيرو روسي، في بورتاليغري وجدنا مطبعة موثوقة وبدأ ابن عمي يعمل فيها، وأنجزنا عملاً متقناً، وجهّزنا عدداً كبيراً من الجوازات، وزّعنا الكثير منها وبقي معي عدداً منها لأنّ الوقت فاتنا. أخذ مونتيرو روسي الحقيبة التي تركها على الأريكة وأدخل يده فيها. هذا ما بقي لديّ، قال. وضع على المائدة طرداً من الجوازات، كانت تفوق العشرين جوازاً. أنت مجنون يا عزيزي، قال بيريرا، تمشي بهذه الحقيبة كأنّ فيها سكاكر، ألا تعلم أنّ نهايتك ستكون وخيمة إذا أمسكوا بك وأنت تحمل هذه الوثائق؟

حمل بيريرا الجوازات وقال: سأخبأها عندي. فكر أن يضعها في صندوق، لكن المكان بدا مكشوفاً. فذهب إلى المدخل وحشرها في المكتبة، خلف صورة زوجته تماماً. عفواً، قال للصورة، لن يأتي أحد لينظر هنا، إنه المكان الأكثر أمناً في البيت كله. ثم عاد إلى الصالة وقال: الوقت متأخر، ربما من الأفضل أن نخلد للنوم. عليّ أن أتصل بمارتا، قال مونتيرو روسي، إنها تفكر بي الآن، ولا تعلم ما الذي حل بي، ربما تظن أنهم اعتقلوني مع برونو. اسمع يا مونتيرو روسي، قال بيريرا، غداً سأتصل أنا بمارتا، ولكن من هاتف للعموم، أما الآن فالأفضل أن تبقى مطمئناً واذهب للنوم، اكتب لي رقم هاتفها على هذه الورقة. سأترك لك رقمين، قال الشاب، إن لم تجب على الأول فستجيب على الثاني بالتأكيد، إن لم تجبك شخصياً إسأل عن ليزا ديلوناي، هذا اسمها المستعار الآن. أعرف، أقر بيريرا، قابلتها في هذه الأيام، لقد نحفت هذه الفتاة كثيراً وأصبحت مثل الكلاب، لا يمكنك

Titter: @ketab_n

أن تتوقع كيف تحولت، إنّ مارتا تعيش حياةً لا تناسب صحتها يا مونتيرو روسي، ليلة سعيدة، هيا.

أطفأ بيريرا الشمعتين وسأل نفسه ما الذي أدخله بكل هذه القصة، لماذا يستضيف مونتيرو روسي، ولماذا يتصل بمارتا ويترك رسائل مشفرة، لماذا يدخل أنفه في ما لا يخصه؟ ترى لأن مارتا باتت نحيفة جداً حتى أنّ كتفيها أصبحتا كجوانح الدجاجة؟ أم لأن مونتيرو روسي لم يكن له أب ولا أم يحميانه؟ بل ربما لأن الأمر يتعلّق بنظرية الطبيب كاردوزو عن فدرالية الأرواح؟ بيريرا لم يكن يعرف السبب وحتى اليوم لا يستطيع أن يجيب عن هذه الأسئلة. فضّل أن يخلد للنوم علّه يستيقظ باكراً في صباح الغد لينظّم يومه بشكل جيد. ولكن قبل النوم عرج لحظة إلى المدخل لينظر إلى صورة زوجته. لم يحدّثها بيريرا بشيء، إنما ودّعها بتحية رقيقة من يده، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

23

يدّعي بيريرا أنه استيقظ في الثامنة من صباح ذلك اليوم في أواخر أغسطس. وكان هطل الأمطار على نخيل الثكنة المواجهة قد أيقظه خلال الليل غير مرة. لا يذكر أنه حلم بشيء، لأنه نام على فترات متقطعة ضيّعت تسلسل الحلم، فلم يذكر منه شيئاً. كان مونتيرو روسي نائماً على الأريكة في الصالة، وقد ارتدى بيجامة واسعة عليه بحجم غطاء. وكان متشنجاً في نومه يشعر بالبرد، فغطاه بيريرا ببطانية شيئاً فشيئاً كي لا يوقظه. وتحرّك في المنزل على رؤوس أصابعه كي لا يُحدث الضجة، حضّر قهوته وذهب ليشتري بعض الأغراض من بقالية الحيّ. اشترى الخبز وأربع علب من السردين ودزينة بيض وطماطم وبطيخة وثماني صلصات للباكالا المسبقة الصنع وسريعة التحضير. ثم رأى اللحم المقدد معلقاً على الواجهة، فاشتراه. قررت أن تملئ الثلاجة يا أستاذ بيريرا، علّق البائع. أجل، قال بيريرا، فالخادمة لن تأتي قبل منتصف سبتمبر، إنها تزور أختها في سيتوبال، وعليّ أن أنظّم أموري، ولا أستطيع أن أشتري الأغراض كل يوم. إذا كنت بحاجة لامرأة أمينة تخدمك فأدلك عليها، قال البائع، إنها تسكن بالقرب من هنا، صوب غراسا، لديها طفل صغير وزوجها قد هجرها منذ زمن. لا شكراً، أجاب بيريرا، لا أفضّل ذلك يا سيد فرانسسكو، فلا أعرف كيف تفسّر بيدادا الأمر، الغيرة والمنافسة على أشدّها بين الخادمات، وقد تشعر بأنني تخليّت عن خدماتها، قد أفكّر في الموضوع حين يأتي الشتاء، أمّا الآن فأنتظر عودة بيدادا.

Titter: @ketab_n

دخل بيريرا إلى البيت ووضع الأغـــراض في الثلاجـــة، ومـــازال الشاب نائماً. ترك له رسالة: "يوجد بيض ولحم مقدد وقطـــع بكـــالا للتسخين، بوسعك أن تسخّنها بالمقلاة، لا تكثرْ من الزيـــت كـــي لا تفشل الطبخة، تغدّى جيداً وكن مطمئناً، أنا أعود عصراً، وسأتصـــل بمارتا، إلى اللقاء، بيريرا".

خرج من المنـــزل واتجه نحو المكتب. وعنـــدما وصـــل وجـــد شيليستا في حجرتها تقلّب التقويم. صباح الخير شيليستا، قال بيريرا، ما الأخبار؟ لا مكالمة ولا بريد، أجابته. شعر بيريرا بالغبطة لأنه يفضّل أن لا يبحث عنه أحد. صعد إلى المكتب وفصل الهاتف، ثم أخـــذ قصـــة كاميلو كاستيلو برانكو وجهّزها للطبع. حوالي العاشرة، اتصل بالجريدة وردّت عليه الآنسة فيليبا بصوتها الأخّاذ. أنا الأستاذ بيريرا، قـــال، أود التحدث إلى رئيس التحرير. فمررت فيليبا المكالمـــة. صـــباح الخـــير يا سيدي، أنا بيريرا، قال، أردت أن أن نبقى على تواصل. جيد جداً، قال رئيس التحرير، بحثت عنك البارحة و لم أجدك في المكتب. البارحة كنت متعباً، بيريرا يكذب، بقيت في البيت لأنّ قلبـــي كاد يتوقف عن العمل. أستوعب ذلك يا أستاذ بيريرا، ردّ عليه، أود أن أعرف ما الذي تنوي نشره في الأعداد القادمة. سأنشر قصة لكاميلو كاستيلو برانكو، أجاب بيريرا، كما نصحتني سيادتك، إنه كاتب برتغالي مـــن القـــرن التاسع عشر لا يشق له غبار على حدّ تعبيري، ما رأي حضرتك؟ رائع، أجابه، لكني أود أن تتابع زاوية "الأحداث التاريخية" أيضاً. فكّـــرت أن أكتب عن ريلكه، أجاب بيريرا، ولكنني لن أكتب شيئاً قبل أن توافـــق عليه. ريلكه، قال رئيس التحرير، اسمه يوحي لي بشيء ما. راينرماريـــا ريلكه، شرح بيريرا، ولد في تشيكوسلوفاكيا، لكنـــه يعتـــبر شـــاعراً نمساوياً، كتب بالألمانية، وتوفي عام 1926. يا أستاذ بيريرا، قال رئيس

Titter: @ketab_n

التحرير، ستصبح لشبونيا جريدة أجنبية إذا استمرّينا على هذا الحال، لم لا تكتب عن أديب برتغالي، كامويس مثلاً؟ كامويس، استغرب بيريرا، لكن كامويس مات عام 1508، منذ أربعة قرون تقريباً. أجل، قال له، لكنه شاعر عظيم من وطننا، وما يزال حيّاً في قلوبنا، سمعتَ ماذا فعل أنطونيو فيرو، وزير البروباغاندا الوطنية، وزير الثقافة أقصد، لمعت في باله فكرة عظيمة أن يجعل يوم كامويس يوافق "يوم العِرق"، فنحتفل بكاتب الحماسة الكبير وبالعِرق البرتغالي معاً وأنت تستطيع أن تكتب حدثاً تاريخياً. لكن يوم كامويس 10 يونيو، اعترض بيريرا، سيدي ما معنى أن نحتفل بيوم كامويس في آخر أغسطس؟ حينها لم يكن لدينا صفحة ثقافية في العاشر من يونيو، شرح رئيس التحرير، وبوسعك أن توضّح الأمر في الزاوية، مثلاً: أننا نستطيع الاحتفال بكاميوس في أي وقت لأنه كاتب وطني عظيم، وهذا ما يذكّرنا بـ "يوم العِرق"، يكفي ذكر مرجع بسيط ليفهم القراء. اعذرني يا سيدي، أجاب بيريرا بنبرة متألمة، أود أن أقول لكم شيئاً، نحن أصولنا لوزيتانية، ثم جاء إلينا الرومان والسلتيك، والعرب أيضاً، فبأيّ عرق نحتفل نحن البرتغاليين؟. تعجّب رئيس التحرير: نحتفل بالعِرق البرتغالي، عفواً يا أستاذ بيريرا اعتراضك لا يعجبني أبداً، نحن برتغاليون، اكتشفنا العالم، أنجزنا أكبر الرحلات البحرية حول الأرض، وكنا برتغاليون قبل أن نسطّر هذه الأمجاد في القرن الرابع عشر، نحن هكذا وأنت عليك أن تحتفل بهذا يا أستاذ بيريرا. ثم سكت رئيس التحرير لوهلة وتابع: بيريرا، في المرة الأخيرة رفعت معك الكلفة، لا أعرف ما الذي يجعلني أستمر على مخاطبتك بطريقة رسمية. كما ترغب سيادتك، أجاب بيريرا، ربما لأنّ المحادثة على الهاتف. ربما، قال رئيس التحرير، على العموم اسمعني جيداً يا بيريرا، أريد أن تصبح لشبونيا جريدة برتغالية جداً حتى في صفحة

Titter: @ketab_n

الثقافة، وإذا لا تفضّل الكتابة عن يوم العِرق فاكتبْ عن كاميوس على الأقل، فهذا إنجاز بحدّ ذاته.

ألقى بيريرا التحية وأغلق السماعة. أنطونيو فيرو، بيريرا يفكّر، أنطونيو فيرو الفظيع، لا أسوأ من أن تصفه بالوغد الماكر، وإلا سيصيبك الجنون لو عرفت أنه كان صديقاً لفرناندو بيسوا، حسناً، لكن اللوم يقع على عاتق بيسوا باختياره للأصدقاء. حاول أن يكتب شيئاً عن كاميوس، وبقي حتى الثانية عشر والنصف. ثم رمى كل ما كتبه في السلة. فليذهب كاميوس إلى الجحيم، قال في قرارة نفسه، الشاعر الكبير الذي غنّى عن بطولة البرتغاليين، أية بطولة. لبس السترة وخرج متجهاً إلى اوركيديا كافيه. دخل وجلس إلى الطاولة المعتادة. جاء مانويل متقد النشاط وطلب بيريرا سلطة السمك. أكل بهدوء ثم ذهب إلى الهاتف. كانت الورقة التي أعطاه إياها مونتيرو روسي في يده. رنّ الرقم الأول طويلاً دون أن يجيب أحد. فأعاد بيريرا الاتصال، ربما أخطأ الرقم كما يحدث أحياناً. لم يجب أحد، فاتصل بالرقم الثاني. أجابه صوت أنثى. آلو، قال بيريرا، أود التحدث إلى الآنسة ديلوناي. لا أعرف من تكون، ردّ الصوت الأنثوي بتحفظ. صباح الخير، أعاد بيريرا، أبحث عن الآنسة ديلوناي. وحضرتك من تكون؟، قال الصوت. اسمعي يا سيدتي، قال بيريرا، لديّ رسالة طارئة لليزا ديلوناي، مرّري لها السماعة لو سمحت. هنا لا توجد أية ليزا، قال الصوت، أعتقد أنك أخطأت الرقم، من أعطاك إياه؟ لا يهم من أعطاني الرقم، رد بيريرا، عموماً إذا كان التكلم مع ليزا صعباً، فاعطني مارتا على الأقل. مارتا؟ استغرب الصوت، أية مارتا؟ ثمة الكثير من المارتات في هذه الحياة. تذكّر بيريرا أنه لا يعرف كنية مارتا فقال ببساطة: مارتا شابة نحيفة شقراء واسمها المستعار ليزا ديلوناي، أنا صديقها وعندي

Titter: @ketab_n

رسالة طارئة لها. متأسفة، قال الصوت، هنا لا يوجد أية مارتا، نهار سعيد. فُصل الاتصال، وظلّ بيريرا واقفاً وبيده السماعة. أغلقها وعاد إلى الطاولة. ماذا أجلب إليك؟ سأل مانويل وهو يصل مبتسماً. فطلب بيريرا ليموناضة بدون سكر، ثم سأله: أما من أخبار مهمة؟ سيزودونني بالأخبار هذا المساء في الثامنة، قال مانويل، لدى صديقي مذياع يلتقط إذاعة لندن، سأحكي لك في الغد إن أردت.

شرب بيريرا الليموناضة ودفع الحساب، وذهب إلى المكتب. وجد شيليستا في حجرها ماتزال تقلّب التقويم. سألها: هل من جديد؟ وصلت مكالمة لحضرتك، قالت شيليستا، كانت من امرأة لكنها لم تقل لماذا اتصلت. هل تركت اسمها؟ سألها. اسمها أجنبي، أجابته، لكنني لا أذكره. لماذا لم تكتبيه؟ أنّبها بيريرا، أنت مديرة الاتصالات يا شيليستا، لم لا تكتبين الملاحظات؟. أنا أكتب البرتغالية بشكل سيء، أجابت، فما بالك باسم أجنبي، ومعقّد فوق ذلك. خفق قلب بيريرا وسألها: وماذا قالت لك هذه السيدة؟ قالت إنها تحمل لك رسالة وتبحث عن السيد روسي، ما هذا الاسم الغريب، أنا أجبتها أنّه لا يوجد أيّ شخص بهذه الكنية، فهنا القسم الثقافي لجريدة لشبونيا، فاتصلت بالفرع العام لأنني ظننت أنك هناك وأردت أن أعلمك، لكنك لم تكن هناك فأخبرتهم أنّ سيدة أجنبية تبحث عنك، ليزا ربما. هل قلت للجريدة إنها تبحث عن السيد روسي؟ سأل بيريرا. لا يا أستاذ بيريرا، أجابت بشعور بالدهاء، لم أقل لهم هذا، إذ لم يبدُ لي الأمر مجدياً، قلت لهم فقط إنّ امرأة تدعى ليزا تبحث عنك، لا تقلق يا أستاذ بيريرا فإن أرادوك سيجدونك. نظر بيريرا إلى الساعة، كانت الرابعة عصراً، غيّر وجهته وقال لشيليستا: أنا ذاهب إلى البيت لأنني أشعر بالتعب، إن اتصل أحد بي أعطه رقم البيت، وقد لا أجيء إلى المكتب غداً فاستلمي البريد عني.

Titter: @ketab_n

في طريقه إلى المنـــزل، جلس بيريرا طويلاً على مقعد في تيريـــرو دو باسو ينظر إلى المراكب التي تنطلق من الضفة الأخرى للتاغو. كانت عصرية رائعة، وأراد أن يستمتع بها. أشعل سيجاراً ودخّنه بشـــراهة، وجلس بقربه عازف اكورديون متجول، أطربه بأغاني كويمبرا القديمة.

وكانت الساعة حوالي السابعة عندما وصل إلى البيـــت. يـــدّعي بيريرا أنه شعر بالقلق حينما لم يعثر على مونتيرو روسي بسرعة، لكـــن الشاب كان في الحمّام. إنني هنا، أحلق ذقني يا أستاذ بيريـــرا، صـــرخ مونتيرو روسي، سأخرج إليك بعد خمس دقائق. نـــزع بيريرا الســـترة وحضّر المائدة. وضع صحون الكالداس، كسهرة الأمـــس، وشمعـــتين اشتراهما في الصباح. ثم ذهب إلى المطبخ واحتار ماذا يجهّـــز للعشـــاء. خطر في باله أن يحضّر طبقاً إيطالياً، ومن يدري لماذا، مع أنه لم يكـــن يعرف المطبخ الإيطالي. ففكر أن يبدع طبقاً، كما يدّعي. قسم شريحة كبيرة من اللحم المقدد وقطّعها إلى أجزاء صغيرة، ثم فقـــس بيضـــتين وخفقهما، وملأ الوعاء بالجبن المبشور ووضع اللحم فيـــه، ثم أضـــاف الزعتر البري، وخلط بشكل جيد وأشعل النار تحت قـــدر مـــن المـــاء للمعكرونة. عندما بدأت الماء تغلي أنـــزل فيها السباكيتي التي كـــان يحتفظ بها في خزانة منذ بعض الوقت. خرج مونتيرو روسي من الحمّام طازجاً كالوردة، لبس قميص بيريرا الترابـــي الفضفاض. فكـــرت أن أحضّر طبقاً إيطالياً، قال بيريرا، لا أعلم إن كان إيطالياً حقاً، ربما كان خيالاً، لكنها معكرونة على الأقل. رائع، هتف مـــونتيرو روســـي، لم آكلها منذ قرن. أضاء بيريرا الشمعتين وقدّم الســـباكيتي في الصـــحن. حاولت أن أتصل بمارتا، قال، لكن أحداً لم يجب على الـــرقم الأول، وعلى الثاني ردّت سيدة تتظاهر بالبلادة، قلت لها حـــتى إنـــني أريـــد التحدث إلى مارتا، ولكن عبثاً، وعندما وصلت إلى المكتب قالـــت لي

Titter: @ketab_n

البوابة إن امرأة اتصلت وتبحث عني، من الوارد أن تكون مارتا، كم هي متهورة هذه الفتاة، عموماً من الممكن أن يعرف أحدهم بأنني على تواصل معها، وأعتقد أنّ هذا سيحدث المشاكل. وأنا ماذا عليّ أن أفعل؟ سأل مونتيرو روسي. إن كنت تعرف مكاناً أكثر أماناً من هنا فالأفضل أن تذهب إليه، وإلا فابق هنا لنرى، أجاب بيريرا. حمل الكرز إلى المائدة وأكل بعض الحبات دون المشروب، فيما أترع مونتيرو روسي الكأس. وفي تلك اللحظة طرق أحد ما على الباب. كان يطرق عليه بشدة على وشك أن يخلعه. فتساءل بيريرا كيف يستطيع أحد أن يدخل من باب البناية دون إذن، وبقي صامتاً بضع ثوان. تكررت الطرقات بأسلوب عنيف وغاضب. من هناك؟ سأل بيريرا وهو ينهض، ماذا تريدون؟ افتح، نحن الشرطة، أجاب أحد ما، افتح الباب وإلا حطّمناه. تراجع مونتيرو روسي بعجلة نحو غرفة النوم، وقال لبيريرا، قبل أن تنقطع أنفاسه: الوثائق، الوثائق، اخف الوثائق. إنها في مأمن، طمأنه بيريرا واتجه نحو المدخل ليفتح الباب. عندما مرّ أمام صورة زوجته رمى نظرة حادة إلى تلك الابتسامة البعيدة. ثم فتح الباب، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

24

يدّعي بيريرا أنهم كانوا ثلاثة رجال يرتدون زياً مدنياً، مسلحين بالمسدسات. دخل الأول، وكان نحيفاً قصير القامة، له شارب ولحية صغيرة صهباء. نحن الشرطة السياسية، قال النحيف القصير بنبرة قيادية، نبحث عن شخص ونريد أن نفتش البيت. أرني إذن التفتيش، بيريرا يستجوب رجال الأمن. استدار النحيف القصير إلى رفيقيه، وكانا عملاقان يرتديان بدلة غامقة، وقال: هل سمعتما يا رفاق، ما رأيكما؟ صوّب واحد منهما مسدسه إلى فم بيريرا وهمس: أيكفي المسدس كإذن أيها البدين؟ لا يا رفاق لا، قال النحيف القصير، لا تتعاملا هكذا مع الأستاذ بيريرا، إنه صحفي محنّك، يكتب في جريدة لها احترامها، ربما كان كاثوليكياً بعض الشيء، لا أنكر ذلك، لكنه مستعدّ لاتخاذ أفضل المواقف. ثم تابع: اسمع يا أستاذ بيريرا، لا تضيّع وقتنا، نحن جئنا لندردش، وليس من مصلحتنا هدر الوقت، ونعلم أنّ لا شأن لحضرتك بالموضوع، فأنت شخص طيب، لكنك ببساطة لا تعرف مع من كنت تتعامل، لقد وثقت بشخص مشكوك بوطنيته، وأنا لا أريد أن أفتح عليك باب جهنم، دعنا نقوم بعملنا فقط. أنا مدير الصفحة الثقافية في جريدة لشبونيا، قال بيريرا، أريد التحدث مع أحد ما، أريد الاتصال بمديري، هل هو يعلم أنكم في بيتي؟ هيا يا أستاذ بيريرا، أجابه النحيف القصير بصوت عذب، هل يعقل أن تخبر الشرطة مديرك قبل أن تتهيأ لأي عملية أمنية. ولكنكم لستم الشرطة، عاند بيريرا، ليس لكم

Titter: @ketab_n

الصلاحية، وأنتم ترتدون زياً مدنياً، ليس لديكم أي إذن لدخول بيتي. استدار النحيف القصير إلى رفيقيه مجدداً بابتسامة صفراء وقال: صاحب البيت يعاندنا يا رفاق، فماذا نفعل كي نقنعه؟ فما كان من الرجل الذي يصوّب المسدس إلا أن ضرب بيريرا بجمع يده فسقط أرضاً. لا يا فونسيكا لا تتصرف هكذا، قال النحيف القصير ساخراً، لا تؤذ الأستاذ بيريرا، وإلا سيفزع كثيراً، إنه حساس رغم ضخامته، يهتم بالثقافة فهو مثقف، علينا أن نقنعه بالأساليب الحسنة، وإلا تبوّل في ثيابه. فقام الضخم المدعو فونسيكا بتوجيه ضربة ثانية إلى بيريرا ليسقط مجدداً. فونسيكا، قال النحيف القصير مبتسماً، يدك فتاكة يا رجل، تنحَّ جانباً وإلا أفسدت عملي. ثم استدار إلى بيريرا وقال له: أستاذ بيريرا، أكرر، مشكلتنا ليست معك، جئنا لنلقّن الشاب درساً صغيراً وهو في بيتك، إنه شخص مسكين بحاجة لدرس بسيط في القيم الوطنية، ربما نسيها فجئنا لنذكّره بها ليس إلا. تلمّس بيريرا خده متألماً وغمغم: لا يوجد أحد هنا. نظر النحيف القصير حوله وقال: أستاذ بيريرا سهّلْ علينا المهمة، نحن نريد أن نسأل ضيفك الشاب بعض الأسئلة، سنجري تحقيقاً سريعاً معه كي يتذكر القيم الوطنية، لا أكثر ولا أقل. دعني أتصل بالشرطة، أصر بيريرا، ليأتوا بأنفسهم ويأخذوه إلى المخفر حيث تُجرى التحقيقات وليس في البيوت. هيا أستاذ بيريرا، قال النحيف القصير مبتسماً، أنت لست متعاوناً أبداً، إنّ بيتك مثاليّ لإجراء تحقيق خاص كتحقيقاتنا، خادمتك ليست موجودة، جيرانك انتقلوا في اوبورتو، السهرة هادئة وهذه البناية رائعة، إنه أفضل من أي مكتب شرطة.

أومأ بحركة للضخم الذي أسماه فونسيكا، فدفع الأخير بيريرا إلى صالة الغداء. نظر الرجال حولهم، لم يجدوا أحداً، عدا المائدة مع

Titter: @ketab_n

فضلات العشاء. ياللروعة، عشاء حميمي، يا أستاذ بيريرا، قال النحيف القصير، أرى أنكما تعشيتما بحميمية، مع الشموع أيضاً، ياللرومنسية. بيريرا لم يجب. اسمع يا أستاذ بيريرا، قال النحيف القصير بعذوبة، أنت أعزب ولا تراود النساء، كما ترى، نعلم عنك كل شيء، هل تهتم بالذكور مثلاً؟ مرر بيريرا يده ثانية على خده وقال: أنت شخص بذيء، وما تقوم به في غاية البذاءة. هيا يا أستاذ بيريرا، تابع النحيف القصير، نحن رجال ونفهم بعضنا، ما الضير في أن يجد الرجل شاباً وسيماً أشقر بمؤخرة لينة؟ ثم صرخ بلهجة قاسية وحازمة: هل علينا أن نحطّم المنزل أم تذعن للأوامر؟ إنه هناك، قال بيريرا، في الحمّام أو غرفة النوم. أعطى النحيف القصير أوامره لرفيقيه: فونسيكا، لا تضربْ بيدك الثقيلة، وأنت يا ليما تصرّفْ بشكل جيد، أعرف أنك جلبت الهراوة وخبأتها تحت قميصك، ولكن تذكّرْ أنني لا أريد ضرباً على الرأس، على الكتفين أو الرئتين فقط، لأنها توجع أكثر ولا تترك آثاراً. حاضر سيدي، أجاب الضخمان. دخلا إلى غرفة النوم وأغلقا الباب خلفهما. حسناً، قال النحيف القصير، حسناً يا أستاذ بيريرا، فلندردش قليلاً بينما يقوم الرفاق بالعمل. أنا أريد الاتصال بالشرطة، كرر بيريرا. الشرطة، ابتسم النحيف، يا عزيزي أنا الشرطة، الشرطة تحمينا خلال النهار كله، ولكنها في الليل تخلد للنوم من شدة التعب، فماذا نفعل بكل المجرمين الذين بيننا، وأولئك الذين فقدوا الحس الوطني كضيفك، ولكن قل لي يا أستاذ بيريرا، ما الذي أدخلك في مصيبة كهذه؟ لم أدخل في أية مصيبة، أجاب بيريرا، كل ما فعلت أنني عيّنت موظفاً في جريدة لشبونيا. بالتأكيد، بالتأكيد، قال، ولكن كان عليك أن تجمع بعض المعلومات عنه، كان بوسعك أن تستشير الشرطة أو مديرك، أو أن تعطي معلومات عن موظفك المزعوم، اسمح لي أن آكل كرزة.

Titter: @ketab_n

يدّعي بيريرا أنه نهض عن الكرسي في تلك اللحظة. كان قد جلس لأن قلبه بات يخفق بشكل غير مسبوق، لكنه نهض في تلك اللحظة وقال: أسمع صراخاً، أريد أن أذهب لأرى ما الذي يحدث في غرفتي. وضع النحيف القصير المسدس على رأس بيريرا. لن أفعل هذا لو كنت في محلك، قال، الرفاق يفعلان أبسط ما يمكن فعله، لكنك قد تشمئزّ من المنظر، فأنت رجل حساس ومفكر، وتعاني من مرض القلب، بعض المسرحيات لا تناسب صحتك. أريد الاتصال بمديري، أصر بيريرا، دعني أتصل به. ابتسم الرجل بسخرية قائلاً: مديرك الآن يغطّ في نومه، ربما يعانق امرأة جميلة، كما تعلم، مديرك رجل حقيقي يا أستاذ بيريرا، ذو خصيتين كبيريتين، ولا يبحث مثلك عن مؤخرة الشبان الشقر. اندفع بيريرا إلى الأمام وصفع رجل الأمن بكفّ يده. فردّ الأخير بعقب المسدس على فم بيريرا حتى نزف. لا ينبغي أن تقوم بمثل هذه الحركات يا أستاذ بيريرا، قال الرجل، لقد أمروني بأن أحترمك، ولكن للصبر حدود، وليس ذنبي أنك أحمق تستضيف المتمردين في بيتك، بوسعي أن أضع رصاصة في حلقك بكل سرور، ولكني لن أفعل ذلك لأنهم أوصوني بأن أكون محترماً معك، فلا تخالفني يا أستاذ بيريرا، لأن صبري بدأ ينفد.

يدّعي بيريرا أنه سمع حينها صرخة مخنوقة تخترق هدوء الليل. لكن النحيف القصير أوقفه ووجّه له ضربة لم يحتملها بيريرا البدين. اسمع يا أستاذ بيريرا، قال له، لا ترغمني على إستعمال المسدس، لدي رغبة عارمة بإطلاق النار على رأسك أو قلبك، نقطة ضعفك، ولكني لن أفعل ذلك، لا أريد أن أرى الموتى هنا، جئنا لنلقّن درساً في الوطنية لذلك الشاب، ويبدو أنك بحاجة لدرس أنت أيضاً، فقد تتوقف عن نشر القصص الفرنسية. بيريرا يدّعي أنه جلس ثانية، وقال: الكتّاب

Titter: @ketab_n

الفرنسيون هم الوحيدون الذين لديهم شجاعة في لحظة كهذه. بل إنهم سفلة، ردّ النحيف القصير، يستحسن أن يصطفواعلى الجدار لنطلق عليهم النار ونترك الكلاب تتبول فوقهم وتنهش لحمهم النتن. أنت شخص منحط، قال بيريرا. منحطّ لكنّني وطنيّ، أجابه، ولست مثلك يا بيريرا، تتواطئ مع كتّاب فرنسيين.

فتح الضخمان الباب، وخرجا غاضبين ومتعبين. الشاب لم يتكلم بشيء، قالا، لقنّاه الدرس اللازم، واستعملنا الوسائل القاسية، لم يكن أمامنا حلٌّ آخر. هل ارتكبتما ما قد يفضحنا؟ سألهما النحيف القصير. لا أعرف، أجاب فونسيكا، ولكن من الأفضل أن ننسحب من هنا. أسرعا نحو الباب. اسمع يا أستاذ، قال الرجل، أنت لم ترنا أبداً في بيتك، تخلّ عن معارفك وإياك أن تتذاكى، وليكن بعلمك أنها كانت زيارة محترمة، لأننا في المرة المقبلة قد نأتي لأجلك. أقفل بيريرا الباب وسمعهم ينزلون الدرج، كما يدّعي. ثم هرع إلى الغرفة فوجد مونتيرو روسي مستلق على السجادة. صفعه بيريرا بكفه وقال: مونتيروروسي، مونتيروروسي، استجمع قواك، لقد ذهبوا. لكن مونتيرو روسي لم يقم بأية حركة تدل على الحياة. فذهب بيريرا إلى الحمّام، بلّل منشفة ومررها على وجهه. مونتيروروسي، كرر، مونتيروروسي، لقد انتهى كل شيء، لقد رحلوا، استيقظ. في تلك اللحظة بالتحديد، رأى كيف تلطخت المنشفة بالأحمر القاني، ورأس الشاب مضرّجٌ بدمائه، وعيناه جاحظتان تنظران إلى السقف. صفعه بيريرا بكفه، لكن الشاب لم يتحرك. فأمسك بيريرا بالمعصم، لم تكن الحياة تجري في العروق بعد. أغمض تلك العينين الجاحظتين وغطّى الوجه بالمنشفة، ثم فرد الساقين، كي لا تبقى متشنجة، كما يليق بأي جثة هامدة. وفكر أنه لابدّ أن يفعل شيئاً ما بأقصى سرعة، فلم يعد هناك المزيد من الوقت، كما يدّعي.

Titter: @ketab_n

25

يدّعي بيريرا أنّ فكرةً مجنونة خطرت في باله، لكنها قد تكون قابلة للتحقيق. لبس سترته وخرج. كان هنالك مقهىً فيها هاتف، قرب الكاتدرائية، تفتح أبوابها حتى وقت متأخر. دخل بيريرا ونظر حوله. ثمة مجموعة من الساهرين يلعبون الورق مع صاحب المقهى، وكان النادل الشاب يتثاءب خلف البار. طلب منه بيريرا الليموناضة، واتجه نحو الهاتف واتصل بمصحة العلاج البحري في باريدي. سأل عن الطبيب كاردوزو. الطبيب ذهب إلى غرفته، من يريده؟ قالت مديرة المكالمات. أنا الأستاذ بيريرا، قال، أريده لأمر طارئ جداً. سأذهب لأناديه، انتظر من فضلك، قالت. انتظر بيريرا بفارغ الصبر حتى وصل الطبيب. مساء الخير دكتور كاردوزو، قال بيريرا، عليّ أن أخبرك بشيء مهمّ ولكن لا أستطيع الآن. ماذا حدث يا أستاذ بيريرا، سأل الطبيب، هل تعاني من شيء؟ لست على ما يرام فعلياً، أجاب بيريرا، ولكن هذا لا يهم، حصل شيء خطير في بيتي، ولا أعرف إن كان الهاتف مراقباً، لا بأس، دكتور كاردوزو أنا بحاجة لمساعدتك. قل لي بأي طريقة، قال الطبيب. حسناً، قال بيريرا، سأتصل بك في منتصف نهار الغد، أرجوك أن تتظاهر بأنك شخصية مهمة في مؤسسة الرقابة، وتقول إنّك موافق على نشر مقالتي، فقط لا غير. لم أفهم، رد الطبيب. اسمعني يا دكتور، قال بيريرا، أنا أتصل بك من مقهى ولا أستطيع أن أشرح لك الحالة، ثمة كارثة في بيتي تفوق الخيال، لكنك ستفهم تفاصيلها في جريدة لشبونيا مساء الغد، سيتضّح

Titter: @ketab_n

كل شيء غداً، عليك أولاً أن تسدي لي هذا المعروف، أن توافق على نشر مقالتي، قل إنّ الأمن البرتغالي نزيه ولا يخشى من الفضائح، مفهوم؟. مفهوم، قال الطبيب، أنا بانتظار مكالمتك غداً.

عاد بيريرا إلى البيت. دخل إلى غرفته ونزع المنشفة عن وجه الشاب، ورمى عليه غطاء. ثم ذهب إلى مكتبه وجلس خلف الآلة الكاتبة. كتب عنوان: "مقتل صحفي". ثم بدأ يكتب من أول السطر: "يدعى مونتيرو روسي، من أصول إيطالية. كان يتعاون مع جريدتنا بتحضير المرثيات. كتب مقالات عن الأدباء الكبار في حقبتنا، مثل مایاکوفسكي، مارينيتي، دانونزيو، غارسيا لوركا. لم تنشر أيٌّ من مقالاته، وعلّها تُنشر في يوم ما. كان شاباً مرحاً، يحب الحياة، لكنه كان مدعواً للكتابة عن الموت، و لم يستطع التملّص من هذه اللعنة، إذ أنّ الموت جاءه في الليل يبحث عنه. مساء الأمس، بينما كان يتناول العشاء عند مدير الصفحة الثقافية في جريدة لشبونيا الأستاذ بيريرا، الذي يكتب هذا المقال، اقتحم ثلاثة رجال مسلحين المنزل. قدّموا أنفسهم كمخابرات سياسية، لكنهم لم يُظهروا أية وثيقة تثبت كلامهم. ونحن هنا نستثني الشرطة الحقيقية، لأنّ الرجال كانوا يرتدون زياً مدنياً، ولأننا نرجو أنّ الشرطة في بلادنا لا تستخدم هذه الأساليب. كان الرجال أشراراً، ويتصرفون بفظاظة لا مثيل لها، ومن المستحسن أن تحقّق السلطات بهذا الحدث الفظيع. كان الرجل النحيف والقصير يقود الآخرَين اللذين يناديانه بالقائد، له شارب ولحية صغيرة. وهو نادى الرجلين أكثر من مرة باسمهما. وإن كانت الأسماء حقيقية، فالأول يدعى فونسيكا والثاني ليما، عبارة عن رجلين ضخمين ومكتنزين، بملامح سمراء وصفات غبية. بينما كان الرجل النحيف والقصير يصوّب مسدسه في وجه من يكتب هذا المقال، سحل فونسيكا وليما الشاب مونتيرو روسي إلى غرفة النوم للتحقيق، كما أمرهما القائد

Titter: @ketab_n

بنفسه. وإنّ كاتب هذا المقال سمع صوت الصفع واللكم ثم عويلاً مخنوقاً. خرج الرجلان وقالا إنهما أنهيا العمل. فهرع الثلاثة للخروج من المنزل، وهددوا صاحبه بالقتل إذا ما تكلّم حول الجريمة. دخل كاتب هذا المقال إلى غرفة النوم ولم يستطع أن يفعل شيئاً سوى التأكد من حادثة الاغتيال. لقد مات مونتيرو روسي تحت التعذيب، مضرجاً بدمائه، وآثار الضرب بالهراوة ومخزن المسدس واضحة على الجمجمة المهشّمة. الجثة موجودة حالياً في الطابق الثاني من البناية رقم 22 في شارع دا ساوداد، منزل من يكتب هذا المقال. كان مونتيرو روسي يتيم الأبوين، يعشق فتاة جميلة لا نعرف اسمها. كلّ ما نعرفه عنها أنّ شعرها أصهب اللون ومهتمة بالثقافة. لذا نتوجه بخالص عزائنا وتحياتنا الحارة إلى هذه الفتاة، إن قرأتنا. وندعو السلطات العتيدة أن تأخذ هذه الحادثة المؤسفة بعين الاعتبار، ونهيب بها أن تلعب دورها في وقف هذه الانتهاكات العنيفة التي تحصل تحت غطائها، وبتواطؤ مع أحدهم ربما، وتحدث في البرتغال اليوم".

ثم أمضى بيريرا باسمه على يمين الصفحة في الأسفل. واكتفى بوضع اسمه فقط، بيريرا، لأنّ الجميع كان يعرفه بالكنية، كما كان يمضي على جميع مقالاته في تحقيقات الجرائم لمدة ثلاثين عاماً.

رفع عينيه إلى النافذة ورأى الفجر يزغ فوق سعف نخيل الثكنة المواجهة. سمع طنين بوق. استلقى على الأريكة وغفا. وعندما استيقظ نظر إلى الساعة وكان النهار قد طلع. يدّعي أنه فكّر بأن يستعجل. حلق ذقنه، رشق وجهه بمياه باردة وخرج. وجد سيارة أجرة قرب الكاتدرائية فاستقلّها حتى المكتب. كانت شيليستا في حجرتها، ألقت عليه التحية باحترام. ما من جديد؟ سألها. لا جديد يا أستاذ بيريرا، أجابته، سوى أنني سآخذ إجازة لأسبوع كامل. أضافت وهي تُظهر التقويم: سأعود السبت المقبل، ستبقى لوحدك لأسبوع واحد، فالدولة اليوم تهتم بأمور الضعفاء

Titter: @ketab_n

أمثالي، ولهذا السبب نحن نقابيون. سأحاول أن لا أشتاق إليك، غمغم بيريرا وصعد الدرج. دخل إلى المكتب وأخذ المجلد المعنون "مرثيات" من الأرشيف. وضعه في الحقيبة وخرج. توقف عند اوركيديا كافيه وفكّر أنه مازال هناك الوقت لخمس دقائق يشرب شيئاً خلالها. ليموناضة أستاذ بيريرا؟، سأله مانويل بابتسامة بينما يجلس على الطاولة. لا، أجاب بيريرا، سآخذ كأساً من نبيذ البورتو، لي رغبة بالنبيذ اليوم. هذا حدثٌ جديد، قال ايمانويل، أن تأتي في هذه الساعة وتطلب النبيذ، عموماً مرحباً بك، هذا يعني أنك أفضل. وضع مانويل الكأس على الطاولة وترك القارورة أيضاً. أستاذ بيريرا، قال مانويل، سأترك لك القارورة إذا رغبت بشرب كأس آخر، وإذا رغبت سيجاراً سأحضره إليك حالاً. هاتني بسيجار خفيف، قال بيريرا، بالمناسبة مانويل، بخصوص صديقك الذي يلتقط إذاعة لندن، ما الأخبار؟ يبدو أن الجمهوريين يتلّقون ضربات موجعة، قال مانويل، ثم أخفض صوته: أتعلم يا أستاذ، لقد تحدثوا عن البرتغال أيضاً. حقاً، قال بيريرا، وماذا قالوا عنّا؟ يقولون إننا نعيش في ظل نظام دكتاتوري، أجاب النادل، وإنّ الشرطة تعذّب المواطنين. وأنت ما رأيك يا مانويل؟ سأل بيريرا. حكّ مانويل رأسه. بل أنت ما رأيك يا أستاذ؟ رد، أنت تعمل في الصحافة وتفهم في هذه الأمور. أنا أرى أنّ البريطانيين على صواب، بيريرا يصرّح. أشعل السيجار ودفع الحساب، ثم خرج وأخذ سيارة أجرة متوجهاً إلى المطبعة. وعندما وصل وجد مدير المطبعة متعباً. الجريدة تدخل في الطباعة بعد ساعة، قال، أستاذ بيريرا، فعلت خيراً باختيارك قصة لكاميلو برانكو، قصة رائعة، لقد قرأتها أيام المدرسة، ولازلت أراها رائعةً. علينا أن نقتطع منها زاوية، قال بيريرا، لديّ تحقيق، أو مرثية، لختام الصفحة الثقافية. أعطاه الصفحة، أخذ مدير الطباعة يقرأ ويحكّ رأسه. أستاذ بيريرا، قال، إنه حدث حساس جداً، وحضرتك تأتيني

Titter: @ketab_n

به في اللحظة الأخيرة ولا يوجد إذن من الرقابة، المقال يتناول أموراً بغاية الخطورة. يا سيد بيدرو أصغ إليّ، قال بيريرا، نحن نعرف بعضنا منذ ثلاثين عاماً، منذ كنت أحرر في التحقيقات عن الجرائم، في كبرى صحف العاصمة، هل سبّبت لك المشاكل يوماً؟ لا أبداً، أجابه، ولكنّ اليوم تغيّر الزمن و لم يعد مثل الماضي، الآن توجد بيروقراطية وعلينا أن نحترمها. سيد بيدرو، قال بيريرا، لقد أعطوني الإذن من الرقابة شفوياً، اتصلت منذ نصف ساعة من المكتب وتحدثت مع السيد لورنسو المحترم، وأبلغني موافقته. من الأفضل أن تتكلم مع رئيس التحرير، اعترض بيدرو. أخذ بيريرا نفساً عميقاً وقال: موافق اتصل به يا سيد بيدرو. اتصل بيدرو بالجريدة وبقي بيريرا يسمع وقلبه يخفق بالطول والعرض. فهم أنّ بيدرو كان يتحدث مع الآنسة فيليبا. السكرتيرة تقول إنّ رئيس التحرير خرج لاستراحة الغداء، قال بيدرو، لن يعود قبل الثالثة. في الثالثة تكون الجريدة جاهزة، قال بيريرا، ولا يمكننا الانتظار حتى الثالثة. لا أبداً، قال بيدرو، لا أعرف ماذا أفعل يا أستاذ بيريرا. اسمع، عرض بيريرا، الأفضل أن نتحدث مباشرة مع الرقابة، ربما ننجح في التواصل مع السيد لورنسو بعينه. السيد لورنسو، هتف بيدرو خائفاً من ذلك الاسم، معه مباشرة؟ إنه صديقي، قال بيريرا متظاهراً بعدم الاكتراث، لقد أطلعته على مقالتي هذا الصباح، ووافق كلياً، أنا وهو نتواصل يومياً لضرورة مهنتي يا سيد بيدرو. أخذ بيريرا الهاتف واتصل بمصحة العلاج البحري في باريدي. وسمع صوت الطبيب كاردوزو. آلو مرحباً يا سيد لورنسو، قال، أنا الأستاذ بيريرا من جريدة لشبونيا، إنني هنا في المطبعة لإدخال المقال الذي أطلعتك عليه هذا الصباح، ولكن مدير المطبعة في حيرة من أمره لأنه بحاجة لإذن خطيّ للنشر، حاولْ أن تقنعه أرجوك. أعطى السماعة لبيدرو ونظر إليه بينما يتحدث. بدأ السيد بيدرو يسمع ويوافق. طبعاً سيدي، كان يقول،

Titter: @ketab_n

موافق، أنا بأمرك يا سيدي. ثم أغلق السماعة ونظر إلى بيريرا. إلى ماذا توصّلت؟ سأل بيريرا. قال إنّ الشرطة البرتغالية لا تخاف من هذه الفضائح، ردّ مدير المطبعة، وإنّ هنالك كثير من الأشرار وعلينا تسليط الضوء عليهم، وإنّ مقالتك ستنشر اليوم يا أستاذ بيريرا، هذا ما قاله لي. ثم تابع: وقال أيضاً: قل للأستاذ بيريرا أن يكتب مقالاً عن الروح، لأننا بحاجة إليه اليوم جميعنا، هكذا قال لي يا أستاذ بيريرا. أراد أن يمزح ربما، قال بيريرا، عموماً سأتصل به في الغد. ترك المقال للسيد بيدرو وخرج. شعر بالإنهاك وتخبّط كبير بالأمعاء. فكّر أن يأكل شيئاً في إحدى المقاهي، لكنه طلب ليموناضة فقط. ثم استقلّ سيارة أجرة باتجاه الكاتدرائية. دخل إلى بيته بحذر وخشية أن يكون أحدهم بانتظاره. لا أحد في البيت سوى الصمت المدقع. ذهب إلى غرفة النوم ورمق الغطاء الذي يغطّي جثة مونتيرو روسي. ثم أخذ حقيبة صغيرة، ووضع فيها الضروريات ومجلّد المرثيات. ذهب إلى المكتبة، وأخذ يقلّب بين الجوازات. ووجد صورة شخصية لرجل، يدعى فرانسوا باودين، يشبهه قليلاً، وفي سنّه تقريباً، وكان الرجل بديناً وعيناه منفوختين. أمّا جواز السفر فكان فرنسياً ومزوراً بدقة عالية، فأعجب بيريرا بالجواز وباسم صاحبه أيضاً. أخذ صورة زوجته ووضعها في الحقيبة فوق الثياب كي تتنفس جيداً. سآخذك معي، قال لها، من الأفضل أن تأتي معي. ثم نظر لما حوله، وتفقّد ساعته.

من الأفضل أن يستعجل أكثر، فصحيفة لشبونيا ستصدر بعد قليل و لم يكن ثمة وقت يضيّعه، يدّعي بيريرا.

25 أغسطس 1993

Titter: @ketab_n

نشر كاتب الرواية هذا النص في جريدة "ال غاتزيتينو" في سبتمبر عام 1994

في إحدى سهرات سبتمبر من عام 1992، زارني الأستاذ بيريرا للمرة الأولى. لم يكن حينها يدعى بهذا الاسم، ولم تكن ملامحه قد تحددت بعد، بل كان طيفاً صعب المنال، يلّفه الغموض والضبابية. إذ كان شخصية تبحث عن كاتب ليس إلا، ولديه رغبة حثيثة في أن يكون بطل رواية. ولا أعلم ما الذي دفعه لاختياري، أنا بالذات، كي أكتب عنه. الفرضية المرجحّة هي أنني كنت بزيارة للعاصمة لشبونة، في أحد الأيام الحارّة من شهر أغسطس للعام نفسه. أذكر ذلك اليوم جيداً. في الصباح اشتريت مجلّة تصدر في المدينة، وقرأت خبراً عن وفاة صحفي عجوز في مستشفى سانتا ماريا في العاصمة لشبونة، وأنه من الممكن إلقاء الوداع الأخير على الجثمان في كنيسة المستشفى نفسها. لن أذكر اسم ذلك الصحفي البرتغالي، احتراماً للخصوصية. ولكنني أؤكد أنني تعرفت عليه في باريس عن طريق الصدفة، في أواخر الستينيات، عندما كان منفياً يكتب في إحدى جرائد باريس. وكان قد مارس مهنة الصحافة في بلاده، خلال الأربعينيات والخمسينيات، في ظل حكم الدكتاتور سالازار. وقد نجح خلالها بتوجيه صفعة على وجه النظام السالازاري، حين استطاع أن ينشر مقالة حادة ينتقد فيها مساوئ الديكتاتورية البرتغالية. وبعدها، مرّ بمشاكل جدية مع المخابرات، كردّ طبيعي على المقال، واضطر إلى هجر البلاد بحثاً عن اللجوء. ولقد علمت أنه عاد إلى البرتغال، بعد العام 1974، أي بعدما استعادت البلاد الديمقراطية، ولم ألتق به منذئذ. لكنه لم يعد إلى الكتابة لأنه كان في سنّ التقاعد، ولا أعلم كيف كان يعيش بعد أن طواه

Titter: @ketab_n

النسيان للأسف. فالبرتغال في تلك الأيام، كان يمرّ بمرحلة حرجة وعصيبة كأيّ بلد يستردّ حريته بعد خمسين عاماً من الحكم الشمولي، ولا تبرز فيه إلا الدماء الجديدة والشابة. ولم يذكر أحد أنّ صحفياً مسنّاً، كان قد اتخذ موقفاً حازماً ضد النظام البائد في أواخر الأربعينيات.

ذهبت لوداع الجثمان في الثانية ظهراً، وكانت كنيسة المستشفى خالية والتابوت مفتوحاً. وضعوا على صدره صليباً خشبياً، نظراً لانتمائه الكاثوليكي. وقفت عنده لعشرة دقائق تقريباً. كان الرجل مكتنزاً، لا بل بديناً. عندما عرفته، كان يبلغ من العمر قرابة الخمسين عاماً، محتفظاً برشاقته وحيويته. لعلّ الشيخوخة وحياته الصعبة أثّرتا عليه وجعلتا منه عجوزاً هرماً وبديناً. وقرب التابوت، كان هنالك كرّاسٌ مفتوح، فوق كرسيّ صغير، يحتوي على إمضاءات الزائرين. كان فيه بعض الأسماء التي لا أعرف أيّاً منها. ربما كانوا زملاؤه القدامى، أو أشخاص خاضوا معه المعركة نفسها، أو صحفيون متقاعدون.

وفي شهر سبتمبر، بالعودة إلى ما بدأت، زارني بيريرا بدوره. ولم أعرف بم أحدّثه حينها، ورغم هذا أدركت قليلاً أنّ ظهوره الضبابي على هيئة شخصية روائية لم يكن إلا استعارة رمزية. فربّما كان بديلاً طيفياً للصحفي العجوز الذي ألقيت عليه الوداع الأخير. شعرت بالحرج غير أنني استقبلته بمودّة. واستوعبت بشكل عام، في تلك السهرات من سبتمبر، أنّ تلك الروح التي تهيم على وجهها في السماء كانت بحاجتي لتسرد قصتها من خلالي، كي تتكلم عن خيارها ومعاناتها وحياتها. وفي الدقائق اللذيذة الذي تسبق النوم، والتي أعتبرها ملائمةً لاستقبال شخصيات أعمالي الأدبية، رجوته أن يعيد زيارته،

Titter: @ketab_n

وأن يبوح لي بما يرشح عن نفسه، وأن يحكي لي قصته. وحينما عاد الطيف وجدت له اسماً: بيريرا. في اللغة البرتغالية "بيريرا" تعني شجرة الأجاص، وهي كنية يهودية ككل أسماء أشجار الفاكهة، تماماً كما يتخذ اليهود في إيطاليا أسماء المدن ككنية للعائلة. وبهذا الاختيار، أردت أن أمنح تقديراً لهذا الشعب الذي ترك بصمات كبرى في الحضارة البرتغالية، والذي تعرّض لأبشع اضطهاد عرفته البشرية. ولكن ثمة سبب آخر لاختيار هذا الاسم، دوافعه أدبية في الأساس: نص أدبي صغير للكاتب إليوت بعنوان "What about Pereira?" وهو عبارة عن حوار بين صديقين، يستذكران من خلاله شخصية برتغالية غامضة لا يعرف أحد أي شيء عنها، وتدعى بيريرا. في حين أنني بدأت أعرف أشياء كثيرة عن بيريرا خاصتي، الذي كان يروي عليّ، أثناء زياراته الليلية، أنه كان حزينٌ وأرمل ويعاني من مرض القلب، وأنه مولعٌ بالأدب الفرنسي لاسيّما الأدباء الكاثوليكيين ما بين الحربين، مثل موريـاك وبرنانوس، وأنّ فكرة الموت كانت تشكّل له هاجساً، وأنّ صديقه المفضّل وبيت سرّه كان الأب أنطونيو وهو خوري فرنسيسكاني، كان يعترف على يديه متخوفاً من أن يصبح مهرطقاً لأنه لا يؤمن بقيامة الجسد. وهكذا استطاعت اعترافات بيريرا أن تندمج مع مخيّلتي الأدبية بهدف إكمال الصورة. وجدت لبيريرا شهراً مصيرياً في حياته، فكان شهر أغسطس شديد الحرارة من عام 1938. وفكرت في القارة الأوروبية وهي تدنو من كارثة الحرب العالمية الثانية، وفكرت في الحرب الأهلية الإسبانية، وفكرت في كل مآسي تاريخنا المعاصر. وفي صيف 1993، عندما بات بيريرا صديقي المقرّب وسرد عليّ حكايته، استطعت أن أكتب الرواية. كتبتها في فيكيانو، على مدى شهرين يبلغ ارتفاع الحرارة فيهما أشدّه أيضاً، وبطريقة عمل مكثّفة ودؤوبة.

Titter: @ketab_n

ولحسن المصادفات السعيدة، أنهيت كتابة الصفحة الأخيرة في الخامس والعشرين من أغسطس عام 1993، وتقصّدت أن أسجّل هذا التاريخ على آخر صفحة في الرواية لأنه في غاية الأهمية بالنسبة لي: إنه عيد ميلاد ابنتي. بدا لي التزامن مدعاة للتفاؤل إذ يحمل دلالات ما. فمن الرائع أن تولد قصة حياة إنسان، بفضل قوة الكتابة، في اليوم السعيد الذي شهد ولادة أحد أبنائي. ولو تمعّنا في حبكة الأحداث المشفّرة التي تضعنا الآلهة في خضمّها، لوجدنا أنّ لكلّ شيء معنى.

أنطونيو تابوكي

Titter: @ketab_n

Titter: @ketab_n

يدّعي بيريرا أنه اعتاد على التحدث إلى صورة زوجته منذ وقت لا بأس به. فكان يحكي لها ماذا فعل خلال النهار، ويأتمنها على أفكاره، ويطلب منها النصح أحياناً. لا أعلم بأي عالم أعيش، قال بيريرا للصورة، حتى الأب أنطونيو أخبرني بذلك، والمشكلة أنني لا أفكر بشيء آخر سوى الموت، ويبدو لي أن العالم كله قد مات أو أنه على وشك الموت.. ثم فكر بيريرا بابنه الذي لطالما تمنّى الحصول عليه، لكنه لم يجرأ على طلبه من زوجته الضعيفة والمريضة والتي كانت تقضي ليالٍ بالأرق وأوقات طويلة في مصحة السل فشعر بالأسى. لو أنجبتْ له ولداً كان سيكبر ليشاركه الطعام والحديث، ولم يكن بحاجة ليخاطب صورة تعود لرحلة بعيدة بالكاد يذكرها. لا بأس، صبراً.. كانت هذه العبارة التي يختم بها حديثه مع الصورة .

رواية من إيطاليا

ISBN 978-2-84409-763-7

تصميم الغلاف
مهدي عبده